الإشارات التاريخية في شعر محمد إقبال دراسة في ضوء الخلفية والمضمون

د. جميلة هادي ناصر الرجوي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - المساعد -كلية التربية – جامعة صنعاء
Dr.alragawi@gmail.com

الملخص

يحظى شاعر الإسلام إقبال بمكانة كبيرة في قلب وعقل كل عربي ومسلم، لما قدمه من خدمة جليلة في الارتقاء بالأدب الإسلامي إلى مكانة رفيعة بين آداب الأمم، وما زرعه في النفوس من أمل وهمة وتعظيم للحياة وللإنسان والحياة الإنسانية بشكل عام، ولمكانته كشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة، ولما تركه من آثار مضرجة بدماء قلبه ويضوع منها عطر وجدانه وروحه.

وسوف أشير في هذا البحث إلى بعض الحقائق التاريخية التي وردت في شعر إقبال، وأحاول أن نستوعب تلك الأفكار والآراء التي قدمها، موضحة خلفياتها التاريخية والأجواء التي أُنشدت فيها، والظروف التي دفعت إليها. مع الحرص على تقصي أهمها وأكثرها انتشارا في شعره، كنموذج لاهتمامه بالتاريخ والقضايا التاريخية بشكل عام وارتباطها بتاريخ الأمة العربية والإسلامية بشكل خاص. ولو أردنا استيفاء تلك المضامين التاريخية وخلفياتها وظروف نشأتها، لأحتاج الأمر منا سعة في الوقت والجهد لإعطاء صورة واضحة عن هذا الجانب التاريخي المهم في فلسفة إقبال وشعره وسوف يتضح لنا من خلال التطواف لبعض نصوص "محمد إقبال" المترجمة شعرا ونثرا، القيمة التاريخية التي عكست موسوعية الشاعر والفيلسوف، واهتمامه الكبير بقضايا أمته التي ينتمي إليها وتغنيه بأمجاد العرب والمسلمين والدعوة لإحيائها، وتأكيده على أن العقل العربي هو الأقدر على فهم الإسلام فهمًا صحيحًا، والأجدر على حمل أمانته. وقد عني الشاعر عناية عظيمة بالغوص في بحر القرآن وتدبر معانيه، وهو الأمر الذي انتفع به الشاعر انتفاعا عظيما عصمه من التيه الفكري والهيام الأدبي المتمحور حول الذات وحب الملذات، كما هو حال الكثيرين من أدباء وشعراء الأمة. كما حماه هذا التدبر أيضا من الانجراف مع التيار العقلي الأوربي الذي كان سائدا في عصره، والذي يأخذ المرء بعيدا عن المعاني الروحية والمبادئ الخلقية، ولذا نراه يشتد في نقد الحضارة الغربية المادية ويرى في الإسلام وحضارته السعادة الحقيقية.

2

Historical Allusions in Mohammed Iqbal's Poetry: A Study of Background and Content

Dr. Jameelah Hadi Nasser Errajawi
Assistant Professor of Contemporary History,
Faculty of Education, Sana'a University

Search Summary:

The Muslim poet Iqbal has a great place in the heart and mind of every Arab and Muslim, for his great services in elevating Islamic literature to a high position among the etiquette of the nations, and for spreading hope, inspiration and the appreciation of life, human and humanity in general, and for his position as a poet with a doctrine and a message, and for his great effects in poetry, literature, philosophy and history.

In this research, I referred to some historical facts in Iqbal's poetry. I tried to understand these ideas and insights, explaining their historical backgrounds, the atmosphere in which they were brought up, and the circumstances that led them to happen. With carefully trying to focus on the most important and most widespread in his poetry, as a model of his interest in history and historical issues in general and its association with the history of the Arab and Islamic nations in particular.

It is clear to us through the cruise of some of the translated poetry and prose of "Muhammad Iqbal", the historical value that reflected the Encyclopedic poet and philosopher, and his great interest in the issues of his nation to which he belongs and to enrich the glories of Arabs and Muslims and call to revive it, and his assertion that the Arab mind is the best to understand Islam correctly, And the most qualified to carry its legacy. The poet has devoted great attention to diving in Qur'an and its meanings. This is what the poet has benefited greatly from and prevented him from an intellectual loss and literary delights centered on self and love of pleasures, as it is with many writers and poets of the nation. It also

protected him from drifting with the European mentality that prevailed in his time, which takes one away from the spiritual meanings and moral principles, and therefore we see him strongly criticized material Western civilization and find in Islam and its civilization real happiness.

The Muslim audience have learned the obvious difference between European and American civilization, which is devoid of any sense of faith or spirit, and the Muslim civilization that brought together religion and Politics, and between the spiritual aspect that man needs every day, and the material aspect that the earth needs in order to be reconstructed which was referred to by the Koran.

Muhammad Iqbal was proud in many of his poetry of the glories of the Arabs and bewail them at the same time. An example of his sorrow was when he visited Cordoba and stood in front of the mosque he did not find the Muslims, instead he found the mosque turned into bars of wine. He remembered the lost paradise (Andalusia) and the prayers of Tariq and the nostalgia left in the heart and soul of the poet for those glorious and old days.

At the end of the research, I mentioned that the literature of Muhammad Iqbal - may God have mercy on him - is one of the bases formed on the foundations of Islamic literature, and contained in its content the natural sciences and human experiences, which moved him from the local framework to the international, which is a property that influenced his ideas and poetry.

مقـــدمـــــة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71) } سورة الأحزاب.

فإن شاعر الإسلام محمد إقبال يحظى بمكانة كبيرة في قلب وعقل كل عربي ومسلم، لما قدمه من خدمة جليلة في الارتقاء بالأدب الإسلامي إلى مكانة رفيعة بين آداب الأمم، وما زرعه في النفوس من أمل وهمة وتعظيم لحياة المسلم والحياة الإنسانية بشكل عام، ولمكانته كشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة. ولما تركه من آثار مضرجة بدماء قلبه ويضوع منها عطر وجدانه وروحه.

ويقوم بحثي على دراسة أهم الحقائق التاريخية التي وردت في شعر إقبال، واستيعاب تلك الأفكار والآراء التي قدمها، موضحا خلفياتها التاريخية والأجواء التي أُنشدت فيها، والظروف التي دفعت إليها. استقراءً وتتبعــاً لأهمها وأكثرها انتشارا في شعره، كنموذج لاهتمامه بالتاريخ والقضايا التاريخية بشكل عام، وارتباطها بتاريخ الأمة العربية والإسلامية بشكل خاص. وإدراكا من الباحث بأهمية الموضوع، اخترنا الكتابة فيه، ودراسته في ضوء الخلفية والمضمون، والذي وسمناه بعنوان (الإشارات التاريخية في شعر محمد إقبال دراسة في ضوء الخلفية والمضمون). والله أسأله التوفيق والرضا،،

أهمية البحث وأسباب اختياره: إن أهمية البحث ودوافعه تتمثل في النقاط الآتية:

1- بيان الحقائق التاريخية التي ذكرت في شعر محمد إقبال.

2- المساهمة في إيضاح الأفكار والآراء للخلفية التاريخية المتمثلة في شعر محمد إقبال، واهتمامه بالتاريخ الإنساني رغم أن التاريخ لم يكن تخصصه ولا محور دراساته .

3- السعي إلى كشف النصوص التي تضمنت الإشارات التاريخية من حيث الخلفية والمضمون، ودراستها دراسة تحليلية وصفية.

الدراسات السابقة: رغم أن شعر محمد إقبال قد دُرسَ من جميع جوانبه باستفاضة، إلى أن الجانب التاريخي لم نجد له أي دراسة أو بحث كبقية الجوانب الأخرى الأدبية والفلسفية وقامت الباحثة بالتتبع والاستقراء في المكتبات العامة والخاصة، والشبكات المعلوماتية، فلم تجد بحثا مثيلا لهذا العنوان، إلا بعض مقالات يسيرة وغير مباشرة لم تف بالموضوع، فكان مما دفعنا للكتابة فيه.

منهج البحث: إن المنهج الذي ارتأته الباحثة محققا لأهداف البحث ومؤديا إلى الثمرة المرجوة، هو المنهج الاستقرائي القائم على التحليل والوصف لدراسة الإشارات التاريخية في شعر محمد إقبال.

خطة البحث: اشتملت خطة البحث على مقدمة وتمهيد وسبعة مباحث:

المبحث الأول: (الصراع بين الدين والسياسة).

المبحث الثاني: (شهوة الحكم ونشوة القوة).

المبحث الثالث: (فشل المؤسسات العالمية).

المبحث الرابع: (مصير الأمم وعاقبتها).

المبحث الخامس: (تذكر أمجاد العرب والمسلمين).

المبحث السادس: (نقد محمد إقبال لتبعية المسلمين للغرب).

المبحث السابع: (مسائل أخرى متفرقة في شعر محمد إقبال).

تمهيـــــد:

لم يكن الشاعر والفيلسوف "محمد إقبال" مختصًا في مادة التاريخ ولا محور دراساته، إلا أنه اعتنى بموضوعاته عناية لائقة شأن كل باحث يهمه مصير الإنسان ونهضة الإنسانية وانحطاطها، والقضايا البشرية وتقلباتها. ضف إلى ذلك، أن الفلسفة تثير في الإنسان تطلعـــاً قويـــاً إلى الحقيقة المجهولة، وتحدث فيه ملكة خاصة في ربط الوحدات الضائعة والأجزاء المتناثرة، والتوصل من المقدمات إلى النتائج، ومن الجزئيات إلى الكليات، والانتقال من الحوادث الظاهرة والتغييرات العابرة والأحداث الطارئة، إلى كُنْه الحوادث وأعماقها؛ لذلك نجد إقبـــالا يتوصل بدراسته العامة للتاريخ إلى نتائج وحقائق قد لا يصل إليها أولئك الباحثون والعلماء والمؤرخون التقليديون، وقد دله الوصول إلى تلك الحقائق

والنتائج العميقة فهمه العميق للقرآن، ودراسته المخلصة والمتواصلة لهذا الكتاب المعجز، الذي يحتوي على حقائق أساسية ومبادئ واضحة، تتوقف عليها سعادة الأجيال البشرية وشقاؤها، ورقيها وزوالها، والذي يكشف السِّتار عن الحوادث التي ستواجهها الإنسانية في المستقبل، وأسباب شقاء الأمم وهلاكها وازدهارها، كشفا تتحير له الألباب، ويقف عنده العقل عاجزًا مشلولًا لا يجد له التأويل ([1]).

كما إن دراسة شعر إقبال تمدنا بمعلومات وحقائق جديدة، إذا ما تم تفحصها في إشارته ودراساته التاريخية، حيث رأينا إلى أي مدى تستطيع هذه الومضات التاريخية في شعره الحي، أن تسعف رواد مناهل العلم والبحث الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية، وإنه ليس أقل من اكتشاف إذا قلنا أن شعره يتضمن بعض إشارات تاريخية دقيقة تتكون منها مؤلفات كاملة إذا تم شرحها شرحـــًا وافيًا، لما جمع في بعض أبياته ومقطوعاته أحيانا وفي بيت واحد بعض الحين، عصارة دراسات عميقة ومحصول تأملات طويلة، ولباب مكتبات كاملة تكونت في التاريخ وفلسفة التاريخ، وهذا ما نجد، التقى إيجازه بالإعجاز، يظهر إذا شُرح شعره في نثر وسوق له شواهد تاريخية ودلائل–وهي كثيرة– أن يأتي رائعا أخاذا كما هو الحال في شعره الحلو وبيانه الجميل، وكلامه الجذل، ولا يعرف قدر قيمة هذه الإشارات العلمية والتاريخية وصدق نتائجها وعواقبها التي جاءت في شعره تقديرا صحيحا دقيقا إلا من كان له إطلاع واسع عميق على التاريخ الإنساني والتاريخ الإسلامي، وعلى علوم القرآن، وخبرة دقيقة في دراسة الأديان، وتاريخ القرون الوسطى التي يسميها المؤرخون الغربيون "بالقرون المظلمة (dark ages)([2]) .

وقد لا يمكننا أن ندرك قيمة الحقائق التاريخية التي وردت في شعر إقبال، وأن نستوعب تلك الأفكار والآراء التي قدمها، إلا إذا اطلعنا على خلفياتها التاريخية والمجتمع التي تدور حوله هذه الأبيات. وهي من الكثرة بمكان مما دفعنا إلى أن نتحدث عنها في بحثنا، وأن عند أهمها وأكثرها انتشارا في شعره، كنموذج لاهتمامه بالتاريخ والقضايا التاريخية للأمة، ولذا توصلنا إلى وضع عنوان للفكرة التي يدور

([1]) محمد إقبال (ديوان) الأعمال الكاملة، سيد عبد الماجد الغوري، ط3، دار بن كثير، بيروت، 2007م، ص: 43، 44.

([2]) ديوان إقبال، الغوري، مرجع سابق، ص: 44، 45.

حولها النص، من باب التيسير وترتيب الأفكار. واستعراض الأجواء التي أنشدت فيها، والظروف التي دفعت إليها .

المبحث الأول

الصراع بين الدين والسياسة

لقد وزعت الديانات القديمة – خاصة المسيحية – الحياة الإنسانية إلى قسمين، قسم للدنيا وقسم للدين، ووزعت الكوكب الأرضي في معسكرين، معسكر رجال الدين ومعسكر رجال الدنيا، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب، بل حال بينهما خليج كبير أو وقف دونهما حاجز سميك، وظلا متشاكسين متحاربين، وكانا يعتقدان أن هناك خصومة بين الدين والدنيا، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما فعليه أن يقطع صلته بالآخر، ويعلن الحرب عليه، فلا يمكن له – على حد قولهم – أن يركب سفينتين في وقت واحد، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه والتقدم العلمي ونمائه من غير غفلة عن الدار الآخرة، وإعراض عن فاطر السموات والأرض، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية والتجرد عن خشية الله، ولا إمكان للتدين من غير الرهبانية وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها ([1]).

وقد وجدت هذه القناعة لدى المجتمعات في العصور الوسطى إبان الصراع الذي أخذ يتصاعد بين الكنيسة ورجال الحكم والسياسة، وبينها وبين العلماء الذين أخذت تضطهدهم بطريقة وحشية وغير إنسانية، وهي ذات الفترة التي ظهر فيها المصلح الديني الألماني الشهير "مارتن لوثر" (1483م – 1546م)، والذي قاد ثورة {الإصلاح الديني}في أروبا بعد استبداد الكنيسة، وتمتعها بصلاحياتٍ وسلطاتٍ واسعة، تقومُ على أن الكنيسة مُمَثَّلَةً بشخص (البابا) إنما هي خليفة الرسول "بطرس" ووريثة صلاحيّاته، وأنّ هذه السّلطة المتوارَثة منصوصٌ عليها في الكتاب المقدس". وقد أثبت (لوثر) أفكاره ومعتقداته التي آمن بها في بيان يعلن عن التصرفات الخاطئة في العالم الكنسي، وخطايا الفاتيكان بمختلف القضايا التي

([1]) نفسه، ص 45، 46.

يعيشها الناس وعرفت بعد ذلك باسم "وثائق التخلص من الخطايا" عام (1517م). يقول (مارتن لوثر): "**أنتَ لا تستطيعُ أن تقبلَ كُلاً من الإنجيل والعقل فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر**" ([1]).

وقد ترتّبتْ على حرب الكنيسة ضد العلم والعلماء وضد العقل والعقلاء، إلى أنْ توجُّهَ العالم المسيحي بشكلٍ عامٍ إلى الإلحاد والتخلي عن العقائد الموروثة التي تتناقض في مجملها مع منطق العقل، وأبسط مراتب البحث والتفكير العلمي، ولم تشَقَّ "أوروبا" طريقها نحو العلم والنهضة الصناعية والعلمية والعمرانية إلا بعد أن أزاحت الكنيسة عن حياتها، وأبعدتها عن التدخُّل في شؤون الحياة العامّة والخاصّة للمجتمعات والدّول، فتحولت "أوروبا" خلال سنواتٍ معدودةٍ من عصر الظلمات إلى عصر العلم والتنوير ([2]).

وهنا تطالعنا رؤية إقبال لهذه المتغيرات السياسية في قصيدته التي بعنوان (الدين والسياسة)، فهو يرى أنها جاءت نتيجة كبت رجال الدين للغرائز الطبيعية في الإنسان، وأن تصاعد الصراع بين المعسكرين، أدى إلى أن عددًا كبيرًا من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية آثروا الدنيا على دينهم، ورضوا بها كحاجة اجتماعية وواقع حي، واطمأنوا إليها، وعكفوا على تحسين حياتهم والرضوخ لملذاتهم، وفقدوا الأمل في الدين. ومما زاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون، الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء، والذين لم يدخروا وسعـاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة، وقدموا صورة وحشية انعكست سلبـاً على الدين، ودفعت الكثيرين إلى هجر الدين والإقبال على عبادة النفس والهوى، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيض، ثم آلت إلى السقوط أخيرا في هوة عميقة من الفوضى الخلقية العامة.

وأكثر الذين هجروا الدين، كان هجرهم له على أساس هذا التناقض الذي حسبوه حقيقة بديهية مسلم بها، هذا الانفصال بين الدين والدنيا، وذلك العناد بين رجال الدين ورجال الدنيا، لم يضع حدًا على الدين والأخلاق ولم يحرمه من بركات السماء والأرض فحسب، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد

(4) ول ديورانت ، (قصة الحضارة) ، الجزء (14)، ترجمة: زكي نجيب محفوظ، تقديم: محيي الدين صابر، ص 35.
(5) ولي شيرين، تاريخ أروبا السياسي والثقافي، ترجمة: د. نزار نبيل أبو منشار، ص: 52.

واللادينية وكانت فريسته الغرب أولا، والأمم التي دانت لها في الفكر والعلم والثقافة أو عاشت تحت رايتها ثانيـــاً([1]).

ومن المعلوم أن الإنسان محب لليسر ومجبول عليه، وكل فكرة عن الدين لا تسمح بالاستمتاع المباح لا تصلح في الغالب للنوع البشري، ولذلك حظ نبي الرحمة على التيسير والتجرد من الاستعلاء والحكم بالقوة، عن أنس – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : **((يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا))**؛ متفق عليه. أي اسلكوا ما فيه اليسر والسهولة؛ سواء كان فيما يتعلق بأعمالكم، أو معاملاتكم مع غيركم؛ ولهذا كان النبي – صلى الله عليه وسلم – من هدْيه أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا، كان أبعد الناس عنه. وأعظم هدية للبعثة المحمدية ومنتها العظيمة ونداؤها التي دوت به الآفاق، أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذي ينشده المرء الذي عبر عنه الهدي النبوي بلفظ مفرد بسيط، ولكنه واسع عميق وهو "النية"، والتي تعني أن المسلم لا يؤمن بأن هذا مجرد دنيا، وذاك مجرد دين، إنه يعتقد أن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله، وبدافع الإخلاص وامتثال أمره وطاعته، هو وسيلة للتقرب إلى الله والوصول إلى أعلى درجات الإيمان ومراتب اليقين ([2]).

ومن مآثر الرسول صلى الله عليه وسلم ومنته العامة الخالدة على الإنسانية، أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين اللذين عاشا في خصام دائم وعداء سافر وحقد مستمر، يتعانقان في إلف وود، ويتعايشان في سلام ووئام، إنه صلى الله عليه وسلم رسول الوحدة، وبشير ونذير في الوقت ذاته، هو من أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب، والعطف على البشرية وابتغاء مرضات الله، إن حياة المؤمنين ليست مجموعة وحدات متفرقة متضادة، فالعبودية والعبادة وحدة شاملة وصورة جامعة، وترى في هذه الحياة رجال في زي أمراء، ومعيشة أصحاب الجاه والثراء، وهم في الوقت ذاته من العباد والزهاد الذين جمعوا بين

(6) ديوان إقبال، مرجع سابق، ص 46، 47.

(7) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء الأول، كتاب الإيمان، مؤسسة المختار، القاهرة، 2004م، ص 21.

السيف والمصحف، عباد ليل وأحلاس خيل، من غير أن يروا في ذلك تناقضا، ومن غير أن يجدوا فيه مشقة وحرجا. وقد أكد هذه المعاني القرآن الكريم في قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**. الأنعام آية (162).

ومن هنا تتجلى فراسة إقبال التاريخية، وتبرز الحكمة القرآنية، يقول في ديوانه (أسرار خودي):

"**إن هذا الكتاب الخالد، حكمته غارقة في الأزل سارية للأبد، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة، ويثبت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه بالقول الثابت**".

وفي مقطوعته التي تحت عنوان "الدين والسياسة" حين نتأمل فيها، نلحظ كيف قيد هذا التاريخ الحافل بالإسلام والمسيحية والقرون الوسطى والعصر الحديث، وتعاليم هاتين الديانتين، ووضع كل هذه الحقائق والمعلومات والمعارف في إطار صغير أو زجاجة رائقة من أبيات تترامى لنا بحلاوتها وسهولتها وعذوبة جرسها، إلى جانب طابعها العلمي الرزين وجلالها الفني البديع يقول:" **قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلما تسعها – بالطبع– القيادة والسياسة والحكم والإدارة وقد كان هناك عداء قديم بين الرهبانية والحكم هذا خضوع واستسلام وذاك استعلاء كامل واستيلاء، حتى خَلَصَّت السياسة نفسها أخيرا من الدين ومرقت منه كما يمرق السهم من الرمية، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع لا يقدرون على شيء، فلما انفصل الدين عن الدولة جاءت الشهوة وشاع الهوى، وساد قانون الغاب، هذا الانفصال شؤم على الدولة والدين، وهو لا يدل إلا على ضعف بصر هذه الحضارة وفساد ذوقها.**

ولكنه إعجاز رجل من رجال البداية، الذي كان بشيرا ونذيرا بذات الوقت، يتجلى في بشارته الإنذار وفي إنذاره البشارة. ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهاد والعباد مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد" (*).

(*) من ديوانه (جناح جبريل). الأعمال الكاملة، الغوري، مرجع سابق، الجزء الأول، ص: 403.

المبحث الثاني

شهوة الحكم ونشوة القوة

يشهد التاريخ الإنساني الطويل الذي أثخن بالجراح، وطفح كأسه بالدماء والدموع جراء معارك ضارية، ومغامرات أفراد وجماعات وشعوب، بأن شهوة الحكم ونشوة القوة قد أضرّا بالنوع البشري، وجلبا له الشقاء، حيث يسيطر الشعور بالتفوق والعظمة على فرد أو جماعة، ويحس بأنه ليس على وجه الأرض من هو أقوى منه، وأنه سيل جارف لا يمنعه شيء، وقضاء الله المحكم الذي لا راد له، والحقيقة الباقية والشريعة السائدة هي القوة، أما الإنسانية والعدالة الاجتماعية والأخلاق والضمير، والحسن والقبيح والطيب والخبيث، فهي كلمات فارغة لا تحمل معنى، بل منطق انهزامي يختص به أولئك العبيد والضعفاء والمساكين، والأمم المستضعفة التي لا تملك حولًا ولا طولًا.

وإن هذا السيل الجارف يأتي بين عشية وضحاها على سائر الجهود المعمارية والإنشائية والإنمائية، وكنوز الآباء والأجداد، وذخائر العلم والأدب، وعلى كل ما بناه الأوائل، بل يقطع الأمل في بناء الإنسانية، ونهضتها وصحوتها من جديد إلى قرون طويلة، وقد صور القرآن ببلاغته المعجزة هذا التغيير الهائل على لسان ملكة سبأ قائلًا: **{قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ}** النمل آية (34). كما أن التاريخ الإنساني زاخر بهذه النماذج البشرية التي تمثل هذا الشيء وهذه العقلية، وذلك كالروم والفرس الذي نشأ فيهم هذا السكر بالقوة والشعور بالتفوق على غيرهم، وتملكتهم رغبة عنيفة في القتل والتدمير والإبادة، وإذلال الكرامة الإنسانية تجلت في حروبهم ومعاركهم التي تعكس عبادة القوة وقهر النفوس، يقول الدكتور (دابر) في كتابة "الصراع بين الدين والعلم " **لما بلغت الدولة الرومية من القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات**" (1) كذلك غزو التتار للعالم الإسلامي في القرن السادس الهجري الذي خلف مأساة إنسانية مروعة، حين تدفقت جحافل التتار كالسيل العرم وكالجراد المنتشر، تدمر البلاد العامرة والمدن الزاهرة والأقاليم الخصبة، وجعلها خرابــاً يبابا، وقاعــاً صفصفــاً، كما تأخر التقدم العلمي والمدني مسيرته

(8) ديوان إقبال، مرجع سابق، ص 52، 53.

الحضارية لعدة قرون، وغشيت سماء العالم الإسلامي الذي حمل لواء الدين والأخلاق والعلم والحكمة في هذه الحقبة من الزمن سحب داكنة قاتمة من الجدب العلمي والإعياء الفكري والعقلي، حتى سدت بعض الأوساط العلمية أبواب الاجتهاد ومنافذه، وابتغت العافية في التقليد والنقل، وتطبيق الفعل بالفعل([1]).

أما قيصر والإسكندر وجنكيز وهولاكو وتيمور لنك، لم يكونوا إلا مرضى هذا الداء العضال، داء السكر بالقوة المادية، ونشوة الحكم والشعور بالتفوق والعظمة، الذي دفعهم للعبث بالنفوس والأرواح، وتدمير أسوار الإنسانية مرة تلو أخرى، نجد ذلك مسطرا في ملاحمهم وغزواتهم التي تأمل فيها الشاعر إقبال ثم قدم لها عصارة دراسات طويلة ودون فيها آلافــاً من الصفحات في هذه الأبيات القليلة يقول: " **انظر كيف مزق جنكيز وإسكندر رداء الإنسانية، وهتكا ستار الحشمة ولباس الكرامة، ففضحا الإنسان مرارا وتكرارا .**

بل إن تاريخ الأمم يشهد منذ الأزل أن سكر القوة ونشوة الحكم خطر في خطر، ومصيبة على مصيبة، إنه سيل جارف يكتسح العقل والفكر والعلم والمعرفة والفن والصناعة كحشائش ونباتات حقيرة، يجعلها هباء منثورا"(*).

المبحث الثالث

فشل المؤسسات العالمية

يرى كثير من رجال الفكر في الشرق أن أوربة (بمعسكريها الشرقي والغربي) وأمريكا أصابتهما هذا الداء القديم، فهم يعتبرون أنفسهم أوصياء على الشعوب والأمم والحاكمين على مصائرهم، وهم يقيسون كل شيء بميزان القوة أو الربح والخسارة، ولا يرضون بقيادة صالحة أمينة في أي بقعة من بقاع العالم، ويحاولون اجتثاثها حالا إذا نشأت، وهو منطق نفعي مجرد عن الحق والنزاهة، ولا يسمح للقيادة الغربية معه أن تفكر في أي قضية بحياد تام، ورغبة مخلصة في التوصل إلى كنه الأمر،

(9) عماد الدين إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، الجزء الثالث عشر، دار بن الهيثم، القاهرة، 2006م، ص 125.

(*) وهذا هو سبب انصراف العلماء من الاجتهاد إلى التقليد عند إقبال.

وإيجاد حلها العادل، بل على العكس من ذلك تقف مع الظالم القوي في وجه المظلوم الضعيف الذي له الحق، ولذلك خابت المؤسسات العالمية والمنضمات الدولية مثل (جمعية الأمم المتحدة، ومجلس الأمن) في تحقيق مقاصدها، وصارت لا تمنع صداماً ولا تلم شعثاً ولا تحقق أملاً، ولا تقدر على إسعاف الإنسانية، والأخذ بيدها خالصة مجردة من الأغراض المادية. إلا أنه قد زال بفقدان هذا العنصر الهام والعامل الأكبر – الإخلاص والحياد – تأثير معونات الغرب السخية في المشاريع العمرانية والغذائية في الشرق، ولم تكسب احترامه مقابل هذه المساعدات السخية والدعم القوي ([1]).

وعلى عهد "محمد إقبال" وجدت "عصبة الأمم" والذي تبنى فكرتها الرئيس الأمريكي "ولسون" عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى على أساس المبادئ الأربعة عشر للسلام، وحدد الغرض منها توفير ضمانات متبادلة للاستقلال السياسي واحترام وحدة تراب الأمم الكبيرة والصغيرة على حد سواء، إلا أن العصبة أثبتت فشلها في مواجهة القوى الفاشية في العالم، ومنعها وقوع الحرب، مما تطلّب استبدالها بهيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، التي لم تكن أحسن حالا من سابقتها، فرغم أن الهدف المعلن من إنشائها هو الاهتمام بقضايا الدول المستقلة بعد الدمار الكبير الذي حدث على أثر الحرب العالمية الثانية، وبعد الفشل الكبير الذي حققته عصبة الأمم في تحقيق أهدافها على مدار عشرين عاماً في حفظ السلام والأمن العالمي. إلا أن سيطرة الدول الكبرى الأعضاء على القرار السياسي، والظلم الناتج عن مثل هذه الهيمنة ينبئ بفشلها وسقوطها من جديد ([2]).

وهذا ما تنبأ به شاعرنا وعبر عنه في النص الآتي: يقول إقبال: "**مِسكينةٌ منذ زمان تحُتضرْ/ لا فاه مِقوَلي بسِّيء الخَبرْ/ وموتُها محتَّمٌ لكنما/ يدعو القُسُوسُ أن يزولَ ذا الخطرْ/ عجوزُ أوربةُ يجوز عَيشُها/ على رُقَّى أبليسَ أيامــاً أُخَرْ**"(*).

(10) ديوان إقبال، مرجع سابق، ص 55.

(11) تشالرز آر. بيتر، فكرة حقوق الإنسان، ترجمة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2015م، وكذلك، وموسوعة المعرفة على الإنترنت.

(*) من ديوان (ضرب كليم) ، الغوري، الجزء 2، مرجع سابق، ص: 17.

أما إذا اقترنت هذه القوة بغاية نبيلة سامية، وصارت تحت توجيه قيادة راشد، واستخدمت وسيلة لا غاية، فإنها تتحول من نقمة إلى نعمة ومن موت إلى حياة، وتصبح أداة بناء لا معول هدم يستنجد بها في إغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وتحرير الإنسان من سلاسل العبودية، ورد اعتبار الإنسانية وكرامتها ومكانتها اللائقة بها في هذه الأرض، هنالك يفتتح عهد سعيد، ويبنى هذا العالم المنهار المتداعي من جديد. يقول إقبال: " **إذا تخلت السياسة عن الدين صارت سما ناقعا، وإذا كانت في خدمته صارت ترياقا واقيا**".

ويعتقد إقبال أن أروع نموذج وأجمل مثال لهذه القوة الممتزجة بالغايات النبيلة والمقاصد الصالحة، هي الفتوح المباركة والمغامرات التي قام بها العرب الأوائل، الذين حملوا رسالة الإسلام، وانطلقوا بها في الآفاق مبشرين، والذين استعملوا القوة استعمالًا صحيحـــاً لائقـــاً، وهو ما عبَّر عنه لسان سفيرهم حين قال: **أتينا لإخراج العباد من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.**

وفي الأبيات الآتية يشيد إقبال بالأمة العربية، ويشرح دورها القيادي البناء في تاريخ الشعوب والأمم والحضارات والمدنيات، ويشيد بالعقيدة والإيمان والرسالة التي كانت مصدر هذا الانقلاب، ومنبع التحول العظيم في سير الإنسانية واتجاهها " **اكتست صحراء العرب في ظل هذا النبي الأمي حلة أنيقة، وأنبتت زهرة يانعة، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي بل ترعرعت ونمت في حجره، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مدينا لأمسه. لقد وضع قلبا نابضا خفاقا في جسد الإنسان البارد، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة، هزم كل طاغوت وحطم كل صنم، وأورق به كل غصن يابس وأزهر وأثمر، إنه روح معركة بدر وحنين، وإنه مربي الصديق والفاروق والحسين. أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيض من فيضه، جعل سيف صلاح الدين البتار ، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة. جرعة من كأسه أروت العقل والقلب، والتقى بها روح الرومي بفكر الرازي، واجتمع بها العلم والحكمة والدين والشرع والإدارة والحكم، مع قلوب أواهة مخبتة منيبة في الصدور.**

إن جمال قصر الحمراء، والتاج الذي نال خراج الملائكة وإعجاب القديسين، هو نفحة من نفحاته، ولمحة قصيرة من لمحاته، وومضة من أنواره وبركاته. ظاهره تلك التجليات والنفحات، وباطنه در

مكنون لم يطلع عليه العارفون، ولم يصل إلى كنهه السالكون. فلا ريب أن يستحق ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم، لأنه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التراب"(*).

المبحث الرابع

مصير الأمم وعاقبتها

من المفارقات العجيبة في هذا الكون أن الأشخاص الذين أنشأوا إمبراطوريات عظمى، ودخلت بهم الأمم المستضعفة المهانة في دور النهضة والرقي والنجاح والازدهار، كانوا متقشفين صابرين مغامرين، زاهدين في الدنيا وزهرتها، بعيدين عن التنعم والعيش الرغيد، ولكنهم نجحوا بفضل طموحهم وعلو همتهم وجهادهم واجتهادهم، في تأسيس تلك الحكومات التي ثبتت كالجبال الراسيات لقرون طويلة، ولكن توفر وسائل الرخاء والبيئة الفاسدة، ووجود طبقة من المتزلفين وهواة المناصب، أثر في أخلافهم وأعقابهم بصورة تدريجية أفشلت قواهم، وأخلدوا إلى الأرض وتمرغوا في النعيم والترف، وارتكز ذكاؤهم ونبوغهم وإبداعهم على التنافس في الطرب والمجون، والاستمتاع بلذات الدنيا ومباهجها. والأمثلة من التاريخ العربي والإسلامي كثيرة، نكتفي بمثالين ونموذجين من هذه الأمة التي سبقت قريناتها في حمل لواء التعاليم الخلقية في هذا العالم، وهي أمة النبي الذي عانق الزهد والقناعة، وربط الأحجار على بطنه، واهتم بمراقبة النفس والعطف على الخلق.

ومن المعروف لدى الجميع أن العرب حين خرجوا من حدود الجزيرة العربية لنشر رسالة الإسلام في العالم، كانوا فقراء وغرباء عن حواشي الحضارة ومستلزماتها، وكانت حياتهم حياة فتوة وشكيمة وصبر وزهد وشظف، ولكنهم بفضل القوة الذاتية في الإسلام، نجحوا في إنشاء دول عظيمة مرهوبة الجانب، مثل الدولة العباسية التي حكمت باسم الخلافة خمس مائة عام حكمـاً مستقلًا ذاتيـاً، ودان لها نصف العالم المتمدن على أقل تقدير، وشهدت نهضة علمية رائدة في مختلف الجوانب خاصة في عهد الخليفة (هارون الرشيد) وابنه (المأمون)، يذكر "ابن خلدون" في مقدمته أن بغداد كانت في عهد الخليفة (المأمون) المركز الثقافي لبلدان الشرق، وسوقـاً تجاريـاً عالميـاً تتعامل مع نيسابور وبخارى وطشقند

(*) ديوان جناح جبريل: الغوري، المجموعة الكاملة، جزء 1، مرجع سابق، ص: 407

والقاهرة والقيروان وقرطبة، وكانت بغداد السوق المالية المزدهرة متحكمة في دينارها الذهبي ودرهمها الفضي، وفي الوقت نفسه كانت منابع الثقافة تتدفق على بغداد من ينابيعها القديمة في مصر وبابل والشام، لتفجر بركان الإبداع في عاصمة الإمبراطورية الإسلامية، حتى غدت منارًا للإشعاع الفكري، ورائدة للنهضة الثقافية، فقد أدخل الخليفة العباسي (المأمون) إلى بلاطه أساطين العلم والمعرفة من شتى الأرجاء، لينشروا ما عندهم، ويترجموا الكتب اليونانية واللاتينية والفارسية والهندية والسريانية إلى اللغة العربية، وبذلك اغنوا البلاد بعلمهم الوافر، ومعرفتهم الواسعة وإبداعاتهم الخلاقة ([1]).

وكسبت الدولة العباسية في عهد (هارون الرشيد) احترام ملوك الإفرنج حتى إن ملكهم "شارلمان" كان يحرص على إقامة علاقة جيدة مع "هارون الرشيد"، وقد أرسل(شارلمان) إلى بغداد عام (797م) وفدًا بغية تثبيت أواصر الصداقة بين الدولتين، كما استقبل (شارلمان) رسلًا من قبل (هارون الرشيد) يحملون هدايا شرقية أثارت إعجاب الفرنجة ([2]).

إلا أنه أصاب هذه الدولة داء الترف والتنعم، وأصبح ولاة أمورها الذين حملوا عبء الخلافة الإسلامية على أكتافهم مدة من الزمن عالة على نفوسهم وأهوائهم، وصاروا فريسة الحكم الطويل والمدنية الناعمة المترفة التي عبثت بكثير من رجال العلم والفضل، وضرب حب الدنيا وحب ما فيها أطنابه على العاصمة وما جاورها من البلاد والأقاليم، وقد صور المؤرخ "قطب الدين النهرواني" أوضاع بغداد المترفة في هذه الفترة الزمنية قائلا: " مرفهون بلين المهاد، ساكنون على شط بغداد، في ظل ثخين وماء معين، وفاكهة وشراب، واجتماع أحباب وأصحاب، ما كابدوا حربـــاً ولا دافعوا طعنـــاً ولا ضربـــاً".

وحين ننظر في تاريخ الشعوب نرى هذا التفاوت واضحـــاً بين الأوائل والأواخر في السير والأخلاق وأنماط الحياة، وقد صور لنا (محمد إقبال) هذا التفاوت، وسبب نهضة الأمم وتأخرها في بيت واحد: " **تعال أنبئك عن مصير الأمم وعاقبتها، سنان ورماح أولا، ولهو وغناء آخرا**".

(12) محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، دار النفائس، ط5، ص 134.

(13) Vasiliev,A.A.,Histoirr de LEmpire Byzantin,paris,1932,p.82. كذلك طقوش، نفس المرجع، ص 106، 107.

وحين تدخل هذه الأمم مرحلة اللهو والغناء والترف والمجون، وتتخطى سائر الحدود الخلقية والاعتبارات الإنسانية، وتتجاهل كل حقيقة، هنالك تتدخل الرحمة الإلهية، وتتناولها بعملية جراحية، وتختار لهذه الجراحة جنكيز أو تيمور أو هولاكو، فيقطع هذا الناسور أو هذا السرطان من غير رحمة ولا هوادة، إنه يقول:

"**الملوكية تتحول بين يوم وليلة إلى جنون أو مجون، وليس التيمور أو جنكيز إلا آلات جراحية تستعملها – في حينها – القدرة الإلهية**".

كما يرى إقبال أن دور الملوكية القديمة والشخصيات المستبدة تقلص الآن إلى حد كبير، وجاء دور الديمقراطية والجمهورية، وتكدست قوى العالم وثرواتها في أيدي القيادة الغربية (أمريكا وأروبا)، وهي تجتاز في هذا الوقت مرحلة الجنون والانتحار بعد أن وصلت إلى آخر نقطة من النهضة والرقي والازدهار، وهي مرحلة مرت بها حكومات شخصية قديمة، وحضارات بائدة، ويروي لنا التاريخ عن قيادة فتية شابة كانت تظهر على مسرح العالم في مثل هذه الظروف، فتقوم بعملية جراحية على هذا السرطان وتنقذ الإنسان من الهلاك، وتجري في عروقه الميتة دمـــاً فائرًا جديدًا، ولكن الحضارة الغربية ما تركت على وجه الأرض قيادة أو قوة، والطريق الذي اختارته من استخدام القوة الهائلة في التدمير والقتل والإبادة، التي زودت بها أناســاً لا يخافون الله، ولا يستحيون من الناس، أوشكت أن تقضي على نفسها، ويأتي حتفها بيدها. يقول إقبال:

" **إن هذا الفكر الجريء الذي فضح قوى الطبيعة، وأفشى أسرار الكون، انقلب اليوم برقا خاطفا ورعدا قاصفا، يهدد عش الغرب ووكره، وحصنه ومعقله**"([1]).

(14) ديوان إقبال، مرجع سابق، ص 59-63.

المبحث الخامس

تذكير بأمجاد العرب والمسلمين

حينما كانت أوروبا تعيش في ظلام القرون الوسطى تعاني شعوبها (منذ سقوط روما) أقسى صنوف العذاب من الفقر والجهل والمرض لفترة جاوزت مئات السنين، كانت العواصم في الوطن العربي الكبير كبغداد زمن العباسيين والقاهرة زمن الفاطميين وقرطبة زمن الأندلسيين تطفح بالازدهار الحضاري الزاهي، ساطعة أنوارها المعرفية لا على بلدان المنطقة فحسب بل جاوزتها إلى البلدان الأوروبية ودخلت جامعاتها. ويقول الموسوعي "ويل ديورانت" في قصة الحضارة ما نصه:

"**عندما يتم مسح أدق وأشمل تراث، يصنف القرن العاشر في الشرق الإسلامي كأحد العصور الذهبية في تاريخ العقل الإنساني. وإن قصتنا تبدأ من الشرق، لا لأنه كان مسرحـاً لأقدم المدنيات فحسب، بل لأن تلك المدنيات كانت البطانة التاريخية لثقافة وأربا. وكم كان نظامنا الاقتصادي والسياسي، وكذلك علومنا وآدابنا وفلسفتنا، ودیننا یرتد إلى الشرق إني أرى في هذه اللحظة أن التعصب الإقليمي الذي سار عليه كُتَّابنا التقليديين لم تَعُـدْ مجرد غلطة، بل ربما كان إخفاقـاً ذريعـاً في فهم الواقع، ونقصـاً فاضحـاً في الذكاء، ولم يكن العقل قد تابع خطاه**"([1]).

وعندما عَبَرَ (طارق ابن زياد) بجيشه الصغير المضيق إلى إسبانيا في العام الهجري الثمانين من الفتوحات الإسلامية، استقبله سكانها المحليون، وساعدوه لتحريرهم من نير سلطة القوط البرابرة، فكانوا حقـاً شركاء في الفتح المبين. وبدأ المسلمون في تأسيس حضارة متفوقة جعلت من إسبانيا أجمل وأغنى البلدان الأوروبية، وأنشأوا مدناً كبيرة مزدهرة لم يكن لها نظير على وجه الأرض، خططها مهندسون واسعو الاطلاع، وشيدها بناؤون مهرة فغدت قرطبة عاصمة الأندلس مركز الثقافة لبلدان أوروبا قاطبة.

وبعد قرنين من انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عبر الأندلس، كان هناك معبرًا آخر لانتقال الحضارة وهي جزيرة "صقلية". ففي عهد الإمبراطور "فردريك الثاني" طاف "كونستانتين" عام (1060م) بلاد الشرق الإسلامي، وتعرف على بعض مراكزها العلمية، وبعد رجوعه تأسست مدرسة لدراسة الطب

(15) ويل ديورنت، مرجع سابق، الجزء (24)، ص 85.

في مدينة (ساليرنو) في صقلية، وأخرى للطبيعات في مدينة نابولي الإيطالية. وهكذا فإن هذه الأمجاد عندما تمر عبر ذاكرة متقدة بحب الإسلام وأهله والاعتزاز بمآثره، مؤطرة بشعلة الحب والشعر، فإنها تترجم هذا الحب إلى لوحات فنية وصور جمالية تسلب الألباب، وهذا ما حدث عندما مر (محمد إقبال) على إسبانيا وجزيرة صقلية في طريق العودة من أروبا إلى بلاده ([1]).

أبيات منظومة في "صقلية": بعد أن عاد (محمد إقبال) من أروبا، مرت سفينته بجزيرة صقلية، الجزيرة التي غزتها الجيوش الإسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان، عام (652م)، وانتهى المسلمون من فتحها في عام (965م)، وكانت صقلية على مستوى عالٍ من الأهمية للدولة الرومانية، كونها كانت بمثابة مخزن حبوب الإمبراطورية. وبعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، أعلن الإمبراطور البيزنطي "جستنيان الأول" صقلية مقاطعة بيزنطية عام "535م"([2]).

وأمام انثيال الذكريات التاريخية قبالة الجزيرة، تذكّر إقبال ما كان للعرب والمسلمين من حضارة مزدهرة في هذه الجزيرة، والمآل الذي أصبح فيه عموم المسلمين في العصر الحاضر، فحزَّ ذلك في نفسه وأحزنه كثيرًا. تقول المنظومة:

"وَبكاءٌ بِدموعٍ من دماءْ/ مَجْدُ إسـلامٍ عَليهِ فالْعفـاءْ/ أهلُ صحراءٍ لهمْ هذا المكانْ/ فُلكُهُمْ يَجري بهذا البَحرِ كانْ/ وقُـصُورٌ لملُـوكٍ زُلزِلتْ/ وَسُيوفٌ لِبُروق أُلِقتْ/ إنهمْ جَاؤوا لِدُنيا بالجديدْ/ بِحُسامٍ هدموا الماضي المشِيدْ/ أصبـحَ العالمُ حيًّا بَعدها/ نَبذَ الأوهامَ كانَ عَبدَها/ إنَّ للتكبيرِ لحنًا في الأذُنْ/ أتُرَاهُ بَعدَ هـذا قَدْ سَكنْ/ بِكِ لكنْ ذَلكِ البَحرُ جَميلْ/ أنْتِ في صَحرائهِ نَعـمَ الدَّليلْ.." إلى أن يقول:

"قِصةٌ فيمَا لدَيكِ مِن أثَرْ/ لَكِ صَمتٌ كَبيَانٍ منْ دُرَرْ/ قلبُكِ المحْزُونُ بالأسْرارِ نَمْ/ أنَا مَن كُنتُ تُرَابًا لِلقدَمْ/ أنَا شَاهدتُ قَديمًا كَمْ تَلَونْ/ ولِيَ القلبُ لِما قدْ فاتَ يَحزَنْ/ مِنكِ حُملتُ الهَدايا لِبلادي/ وَهُنا أبْكي وفي أَرضي أُنادي"([♣]).

(16) رضا العطار، فضل الحضارة الإسلامية على النهضة الأوربية، مقال منشور على الإنترنت.

(17) صقلية، موسوعة المعرفة على الإنترنت، على الرابط: www.marefa.org/index.ph

([♣]) ديوان رنين الجرس، الغوري، (الأعمال الكاملة)، مرجع سابق، الجزء 1، ص:87.

فنجد أن المنظومة تتحدث عن مجد الإسلام، وعبور سفن العرب نحو (جزيرة صقلية) فاتحين مجددين، حيث هدموا الماضي الشامخ، وحرروا بالإسلام العالم من الأوهام والضلالات، وهو يحزن عندما يتذكر صوت الأذان الجميل الذي سكن واختفى، ثم يقول: إن صقليه أفضت له بسرها، لأنه حزين مثلها، وكان هو تراب تلك القافلة التي كانت في منزلها المقصود ([1]).

مسجد قرطبة في إسبانيا: المسجد الجامع بقرطبة يسمى بالإسبانية (Mezquita وتنطق: مــِثكيتا)، وهي تحريف لكلمة مسجد. وقد كان أشهر مسجد بالأندلس، ومن أكبر المساجد في أوروبا بناه "عبدالرحمن الداخل" في مدينة قرطبة. وتم بناء المسجد الجامع على مدى قرنين من الزمان. حيث بدأ بناؤه عام (784م) أمير قرطبة (عبد الرحمن الداخل)، الملقب بصقر قريش، والذي يسميه الإسبان عبد الرحمن الأول. ثم أضاف له "عبد الرحمن الناصر" مئذنة جديدة، وقام "الحكم الثاني" في عام (961م) بتوسيع رقعة المسجد وتزيين المحراب، وكانت آخر الإضافات هي التي قام بها "المنصور بن أبي عامر" عام (987م) وقد تحول المسجد إلى "كاتدرائية العذراء" عام (1236م) مباشرة بعد سقوط (قرطبة) في يد "فرديناند الثالث" ملك (قشتالة) ([2]).

(18) بدائع العلامة إقبال في شعره الأردي، ترجمة : حازم محفوظ، حسين مجيب المصري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م، ص 32-33، 125-126.

(19) موسوعة المعرفة، مرجع سابق، كذلك، موسوعة وكيبيديا على الإنترنت، https://ar.wikipedia.org/wiki

وفي عام (1932م) زار " محمد إقبال" إسبانيا – الفردوس المفقود – وحرص على زيارة مسجد قرطبة، وتجزم بعض المصادر أن "محمد إقبال" كان أول مسلم يصلي بالمسجد منذ سقوط الأندلس(♣)، وهناك وقف الشاعر المؤمن أمام سيل الذكريات التي أخذت تنهال عليه مستعرضـــاً إيمان وعزيمة العرب الذين أقاموا دولة الأندلس بقيادة (عبد الرحمن الداخل) وإخضاع هذه البلاد النائية الجميلة للعقيدة الإسلامية، ووقف خاشعـــاً أمام العاطفة القوية، والحب الطاهر الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى، منبهرًا أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد، وتذكر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه، وجمعوا به بين الجمال والجلال، والأنفة والتواضع، وتذكر ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الأمة، فليس له نظير في الأصوات والإعلانات والرسالات، ذلك الأذان الذي كان يخشع له الكون، وتزلزل به أوكار الفساد، ويتنفس به الصبح الصادق في العالم. هو ذلك الصوت المليء بالمعاني السماوية السامية.

(♣) أبو الحسن الندوي، روائع إقبال، ط1، دار الفكر، دمشق، 1960، ص: 77.

فقد حرك هذا المنظر الرائع والأثر التاريخي الفريد مشاعر إقبال، الذي لم يعرف منبره الخطبة ولا بلاطه السجود، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذان منذ قرون، حرك كل ذلك في إقبال الإيمان والحنان، والأحزان والأشجان، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها في "جامع قرطبة" وقد كتب معظمها في قرطبة وأكملها في إسبانيا.

يقول إقبال:" **تدين أيها المسجد العظيم في وجودك لهذا الحب البريء، ولهذه العاطفة القوية التي كتب لها الخلود، فهي لا تعرف الزوال والانقراض، إن البدائع الفنية التي لم ترافقها العاطفة، ولم يسبقها دم القلب – الحب(*)– أصبحت مصنوعات سطحية من لون أو قرميد أو حجر أو لفظة أو كتابة أو صوت لا حياة فيها ولا روح، إن المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحب، ولا تقوم إلا على العاطفة والإخلاص، الحب هو الذي يفرق بين قطعة من حجر، وقلب خفاق حنون للبشر، فإذا فاضت منه قطرة على الحجارة الصماء خفقت وعاشت، وإذا تجردت منه القلوب الإنسانية جمدت وماتت".**

ويقول في عقيدة مؤمن ودلال شاعر محب: "**إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم نسبا في الإيمان والحنان، وتحريك العاطفة وإثارة الأحزان، إن الإنسان في تكوينه وخلقه قبضة من طين لا تخرج من هذا العالم، ولكن له صدرا لا يقل عن العرش كرامة وسموا، فقد أشرق بنور ربه، وحمل أمانة الله، إن الملائكة تمتاز بالسجود الدائم، ولكن من أين لهم تلك اللوعة واللذة التي أمتاز بها سجود الإنسان؟!**".

وهنا يتذكر (محمد إقبال) جنسيته ووطنه، وأنه هندي النجار، ومن إحدى بيوتا (البراهمة) ، ويتذكر أنه أمام أثر إسلامي عربي صميم قديم، فيقول: " **انظر أيها المسجد إلى هذا الهندي الذي نشأ بعيدا عن مركز الإسلام ومهد العروبة، نشأ بين الكفار وعباد الأصنام، كيف غمر قلبه الحب والحنان، وكيف فاض قلبه ولسانه بالصلاة على نبي الرحمة، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك، كيف ملكه الشوق، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيد والإيمان". لقد كشفت أيها المسجد العظيم عن سر المؤمن، ومثلته في العالم، وصورت ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهاره، والرقة التي يمضي فيها ليله، صورت للعالم مقامه الرفيع، وتفكيره السامي، ومسيرته وأشواقه، وتواضعه ودلاله**"

ثم يقول أيضا: "**يا مثابة هواة الفن، ويا مقصد رواد الجمال، ويا مجد الدين الإسلامي، لقد سمت بك أرض الأندلس وتقدست في أعين المسلمين، إنك فريد في الفن والجمال لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب مؤمن، أين لنا أولئك الرجال؟ هؤلاء الفرسان العرب أصحاب الخلق العظيم، وأصحاب الصدق واليقين، الذين برهنت حكومتهم على أن حكومة أهل القلوب خدمة وزهادة، وليست حكما ولا ملكا، هؤلاء العرب المسلمون الذين كانوا مربي الشرق والغرب،وكانوا أصحاب عقول حصيفة وبصيرة نافذة، يوم كانت أروبا تتسكع في الجهل المطبق والظلام الحالك، والذين لا تزال في الشعب الإسباني بفضل دمهم العربي خفة روح وحفاوة وبساطة، وجمال شرقي وتكثر فيهم عيون المها، ولا تزال عيونهم ترشق بالنبال ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمن ورنات الحجاز**"([1]).

يعود مخاطبـــاً إسبانيا – الأندلس– فيتغنَّى بأرضها التي تطاولت السماء سموًا ورفعة، ويتوجع على أن أجواءها لم تسمع الآذان منذ قرون، يقول شعرا: "**إنَّ أرضـــاً أنتَ فيها لسماءٌ لِلعُيونْ/ كيفَ لَمْ يسمع أذانا أهْلُها منذُ قُرونْ/ ليتَ شعري كيفَ أسرى موكبُ الحبِّ الغَضُوبْ/ ليت شعري ما يُرى الآن وفي أيَّ الدروبْ**"([2]).

ثم يذكر ما مر على العالم المتمدن من تقلبات وثورات، ويتشوق إلى ثورة جديدة مركزها الشرق الإسلامي فيقول نثرا: "**لقد شهدت ألمانيا ثورة الإصلاح الديني التي عفت الآثار القديمة والتقاليد العتيقة في أروبا، فجحدت أروبا المسيحية عصمة القسوس والباباوات، وتحرر الفكر الأوربي وتحركت سفينته في يسر وسهولة، وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي اضطربت لها أروبا اضطرابا، وأصبح الشعب الطلياني – الرومي– شابا فتيا بلذة التجديد*، هكذا الروح الإسلامية مضطربة قلقة تطلب انتفاضة جديدة، ولكن متى ذلك؟ إنه سر من أسرار الله لا يفصح به اللسان والعالم يتمخض بحوادث جسام، فلا يستطيع أحد أن يتكهن بالمستقبل**".

(20) أبو الحسن الندوي، روائع إقبال، مرجع سابق، ص:81.

(21) ديوان إقبال، الغوري، مرجع سابق، ص 480.

ويخاطب نهر قرطبة (الوادي الكبير) ويقول: "**إن على شاطئك أيها النهر العزيز رجلا يرى حلما لذيذا، يرى في مرآة المستقبل عصرا لا يزال في طيات الغيب، يرى عصرا قد بدت تباشيره وظهرت طلائعه لعينه ولكنها لا تزال محجوبة عن أعين الناس، لو كشفت الغطاء عن هذا العالم الجديد وبحت ما في صدري من أفكار وأسرار لشق ذلك على أروبا وفقدت رشدها وجن جنونها**".

ثم يعود مرة ثانية يشيد بفضل التجديد في حياة الأمم والشعوب والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ويقول: "**كل حياة لا تجديد فيها ولا ثورة، أشبه بالموت، إن الصراع هو حياة روح الأمم، إن أمة تحاسب عملها في كل زمان سيف بتار في يد القدر، لا يقاومه شيء ولا يقف في وجهه شيء**".

ويختم (محمد إقبال) قصيدته البديعة بكلمة حكيمة ومأثورة مبنية على تجارب واسعة ودراسات عميقة، واستعراض واسع للأدب والشعر والفن والأفكار. يقول: "**إن كل مأثرة وكل إنتاج لم تذب فيه حشاشة النفس ناقص وجدير بالفناء والزوال السريع، وكل رنة أو نشيد لم يدم له القلب، ولم تتألق به النفس قبل أن يصدر، ضرب من العبث والتسلية، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار**"([1]).

من دعاء طارق بن زياد: نزل (طارق بن زياد) القائد الشاب بجيشة العربي المسلم على أرض إسبانيا وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتنقطع بالمسلمين أسباب الرجوع ، ثم وجه طارق بن زياد خطابه قائلًا: **(يا إيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر(♥)**، وواقعة إحراق السفن، والخطبة التي خطب بها طارق في جيشه يشكك في صحتها كثير من المؤرخين، ويسوقون دلائل لذلك ليس موضعها هنا، ولكن هذه الواقعة ذكرت في كثير من كتب المؤرخين الأواخر، واستشهدوا بها على شجاعة طارق، وقوة بيانه التي انعكست في خطبته، والتي رمى من ورائها أن يثير في جنده القوة الكامنة، والاعتماد على الله ثم على سواعدهم وسيوفهم، ويتضح في بقية فقرات الخطاب، أن طارق صف جيشه أمام العدو واستعرضه ورأى أنه لا يكافئ الجيش الإسباني في العدد والعُــدّة، فإن العدو في مركزه ومملكته والجيش الإسلامي غريب

(22) روائع إقبال، مرجع سابق، ص 81- 83.

(♥) مقطع من خطبة طارق بن زياد. نفس المرجع، ص 40.

منقطع عن مركزه وبلاده، كل ذلك أثار فيه التفكير والاهتمام، فلم ير حيلة إلا أن يضم إلى هذا الجيش قوة لا تهزم، وإرادة لا تغلب، أنها القوة الإلهية والإرادة الربانية، وقد وثق بها طارق ووثق أنها معه، أليس هذا جند الله؟ ألم يأت ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه، ويطلب نصره مقتديــاً في ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بدعائه ويقول: " **اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد** " دعا طارق بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ولا يخطر منهم على بال، وقد سبكه "محمد إقبال" في قالب شعره، فزاد في تأثيره وسحره ([1]).

يقول "محمد إقبال" على لسان طارق: "**اللهم إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهادا في سبيلك وابتغاء مرضاتك رجال غامضون مجهولون لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك، لقد منحتهم طموحا وعلو وهمة لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم يحكمون الدنيا كلها بحكمك وينفذون فيها أمرك، لا يعلوهم غيرك، أبطال مغاوير، تنفلق بهيبتهم البحار وتنضوي لصولتهم الجبال، لقد ذاقوا لذة الحب والإيمان حتى استغنوا بها عن العالم والمادة، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهوتها، وذلك شأن الحب اذا خالطت بشاشته القلوب، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة، التي هي وطر المؤمن العزيز وهمه الوحيد، لا يفكرون في الغنائم ولا في فتح البلاد ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد، إن العالم قد وقف على شفا حفرة من النار، لا يمنعه من التردي في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ونفوسهم بسخاء وشجاعة، إن العالم بحاجة إلى دم عربي زكي فلا يروي غليله ولا يشفي عليله إلا الدم العربي الطاهر، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني، فترفل في حلته، وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ونريق دمائنا في هذه الأرض النائية، لتخصب الإنسانية بعد جدب طويل، ويحل الربيع بعد انتظار شاق طال أمده .**

(23) محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الأول، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2001م، ص: 46، 47.
– وكذلك، الغوري، مرجع سابق، ص 486، 487.

لقد أكرمت يا رب رعاة الإبل وسكان الوبر – العرب – بنعم فريدة لم يشركهم فيها أحد، لقد أفردتهم بعلم جديد وإيمان جديد وشعار جديد، هو: أذان الصبح، فقد أفلست الأمم من العلم الصحيح والإيمان القوي والذوق الرفيع، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد على حين غفلة من الناس، أما العرب فقد فاجأوا العالم بصحة علمهم وجدة إيمانهم وسلامة ذوقهم ودوي أذانهَم في السكون المخيم على العالم والظلام الحالك، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرون طويلة، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة وكتلف للنفس الإنسانية، انهم يرون فيه فتحا جديدا وعيشا جديدا، أعد يا رب إلى هذه الأمة المؤمنة الحمية الإيمانية والغضبة المؤمنة التي تجلت في دعاء في نوح حين قال : " وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً♥ " حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد، واخلق فيها المطامح البعيدة والعزائم القوية الشديدة، واقذف في قلوب الناس رعبتها وهيبتها، حتى تعمل نظراتها عمل السيوف"(♣).

وقد استجاب الله دعاء طارق القائد المؤمن المخلص وانتصر الجيش الإسلامي على عدوه الذي كان يفوقهم مرارا في العدد والعدة ، وأصبحت إسبانيا النصرانية الأوربية الأندلس الإسلامي الغربي ، وقامت دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قرونا ولم تضعف ولا تزل إلا بفقدهم الروح التي تضلع بها طارق وأصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي جاءت بهم ممن جزيرة العرب، وبفقرهم في الإيمان الذي امتاز به طارق بين قادة الجيوش وفاتحي البلدان، وبانغماسهم في الشهوات والحروب الداخلية **{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}**. الأحزاب، آية 62([1]).

(♥) سورة نوح، الآية (26)

(♣) ديوان جناح جبريل، الغوري، مرجع سابق، ص: 486.

(24) روائع إقبال، مرجع سابق، ص 95-97.

المبحث السادس

نقد "محمد إقبال" لتبعية المسلمين للغرب

يرى "محمد إقبال" أن الحضارة الأوربية حضارة مادية، لا روح لها ولا قلب، ويشتد في نقدها، ويرى أن في الإسلام وحضارته سعادة البشر والتأليف بينهم، وجمعهم على شرعة الحق أخوة متحابين متعاونين. وهو يَدْعو المسلم – الذي يَعرف الفرق بين الرُّوح والجسَد – أن يُحطِّم سِحْر هذه المدنيَّة المُلحِدة، وأن ينتزع السَّيف من قبضة قاطع الطَّريق! وهنا يُعبِّر إقبال عن مضمون رسالته الشعريَّة، والعقلية –أيضًا– حين يُخاطب هذا المسلم قائلًا:" **انْفث روحَ الشَّرق في جسده، حتَّى تصير هذه الرُّوح مفتاح قفلِ المعنى. إنَّ الإنسان العقلانيَّ ربَّاني ما دام في حُكْم القلب، فإذا تحرَّر منه صار شيطانًا!**".

وهذا ما حدثَ في أوروبا، الَّتي أصبحَ شرْعُها هو شَرْعَ الغابة، وهو الَّذي جعل لَحْم الحمَلِ حلالاً للذِّئاب، أولئك الذين يَصِفُهم إقبالٌ بأنَّهم "**سارقو الأَكْفان، ونبَّاشو القبور!**" وهو يُخاطِب ابن الشَّرق، المُسْلِم الحقيقي فيقول: **يا أسير الألوان، انتبه! كُن مؤمِنًا بذاتك، واكفر بالغرب؛ فزِمام النَّفْع والضَّرر بيدك أنت، وكَرامة الشَّرق وعِزَّتُه في يدك أنت. وَحِّدْ شتاتَ هذه الأمم العريقة، وارفع رايةَ الصِّدق والصفاء عاليًا؛ فقُوَّة الأمة تَكْمن في وحدتها** ."ثم يُخاطبه – وهو في الواقع كأنَّما يشير إلى نفسه – قائلاً:"**أيُّها العالِمُ: لا يَعْرف أسرارَ الإفرنج سواك، ولا يستطيع الخوضَ في نارهم إلاَّ أنت**"!

ويُناشد إقبال الإنسانَ المسلم، التَّائه عن مقامه ومكانه ووطنه، قائلاً بأعلى الصوت:

"**كن نَفْسَك: رجُلاً لِلَحْظة، وكُنْ أجنبيًّا مع الأجنبي، أيُّها الجاهل عن اللَّحن والصَّوت، اعرف جنسَك، ولا تَطِرْ مع الغربان**"! ثم يختم القصيدة بقوله: "**خُذْ حظَّك من فقري، فلن يأتي بعد الآن فقيرٌ مثلي**"! (*).

ولا تقتصر دعوة "محمد إقبال" للمسلمين إلى النُّهوض بذَواتهم، والتَّماسك من أجل وحدتهم، وعدم الاغترار بحضارة الغرب الزَّائفة، والتي تُخفي سُمَّها القاتل في العسل الذي تُقدِّمه للشُّعوب الشرقيَّة

(*) من ديوان "والآن ماذا ينبغي أن نفعل يا أُمَم الشَّرق؟"، ترجمة: يوسف عبد الفتاح، مقال منشور على الإنترنت.

المقهورة، بل إنَّه يَعْمل على المقارنة بين الطَّرَفين، مُشيدًا بالحضارة الإسلاميَّة التي أشرَقَتْ بِنُورها على العالم كلِّه، فأضاءَتْه:

نبتَ العلم والدِّين في أرض الشَّرق، رفَعْنا الحجاب عن الكائنات، فالشَّمس منَّا، ونحن من الشمس ! جَوهرُ كلِّ صدف مِن ربيعنا، وشوكة كل بحر من قوَّة طوفاننا، كشَفَ فِكْرُنا أسرارَ الوجود، وكُنَّا أوَّل عازفٍ على أوتار الكَوْن".

يحرص (محمد إقبال) الشاعر الإسلامي الحقيقيّ إلى أن يوضِّح معنى السِّياسة والدين لأهل الحقِّ، وأن يُعيد التوضيح لهاتين الحكمتين؛ ففي قصيدته التي بعنوان" خطاب إلى الشَّمس المضيئة" يَقول:

" **أنتِ ضياء الصُّبح، وأنا غروبُ اليوم، فأشعِلي سراجًا في ضميري، وأَنِيري ظلمة تُرابي، واستُريه في تجلياتك؛ حتى أُحيل لَيل أفكار الشَّرق نهارًا، وأُشعل صدور أحرار الشَّرق، وأَصوغ النَّغمات من خام الطَّبْع، وأفتح الأيام دورةً أخرى؛ كي يتحرَّر فِكْرُ الشَّرق من الإفرنج، ويكتسب من شعري مياهًا جديدة، ولونًا آخَر."**

الهدف إذًا واضح، وهو "إحالة ليل أفكار الشَّرق إلى نهار، وإشعالُ الجَذْوة في صدور أحرار الشَّرق"، وإذا تساءَلْنا: ماذا حدث للأُمَّة الإسلاميَّة؟ يجيب إقبال :**منذ ثلاثة قرون، وهذه الأُمَّة مسكينةٌ ذَليلة، تَحْيا بلا سُرورٍ ولا حرقة قلب، أصبح الفِكْر خسيسًا، والذَّوق أعمى، فحُرِم مُعلِّموها الشَّوق، وحُرِمت مَدارِسُها منه، لدرجة أنَّه لَم يَعُد الإنسانُ فيها يعلم شيئًا عن مقامه ومَنْزلته، ومات ذوق الثَّورة في قلبه، صار طبْعُه بلا صحبةٍ لِمُرشدٍ خبير، سقيمًا لا يقبل الحقَّ. حتَّى إنه جعل العبد المفلس الماكِرَ السَّافل مولاه ليس لدَيْه المال الَّذي يأخذه السُّلطان، ولا نور القلب الذي يَنْزعه الشيطان !هو مريدٌ لشيخه اللُّورد الإفرنجي، وإنْ تغنَّى بمقام (بايزيد.!)**". وبعد أن يَستطرد إقبال إلى المقارنة بحال أوروبا التي لا تدرك حقيقة هذا المقام الدِّيني؛ لأنَّ عيونها لا تنظر بنور الله، ولا تُميِّز بين الحرام والحلال، يُؤكِّد للمسلمين أن:

"**الشرع ينهض من أعماق الحياة، وإذا أردتَ أن ترى أعماق الدِّين واضحة، فلا تنظر إليه إلاَّ مِن أعماق الضَّمير، وإن لم تَفْعل، فدينُك هو الجَبْر، ومثل هذا الدِّين لا يرضاه الله.**"

ويَستمِرُّ إقبال في دعوة عُلَماء الدِّين إلى الخروج من مَجالسهم المَحْدودة إلى فضاء العالم الرَّحيب؛ لكي ينشروا الإسلام، ويكتَشِفوا أسرار الشَّرع المبين؛ حتَّى لا يُصبِح أحَدٌ في هذا العالم مُحتاجًا إلى أحد، وهو يُعلِّق على هذا قائلاً: "**هذه هي أسرار الشَّرع المبين وحَسْب! أمَّا العلماء الَّذين لجأوا إلى التأويل، فقد خمدَ ميزانُهم في الضَّمير، ومن ثَمَّ لم يعودوا قادرين على التَّواصل مع الشَّباب، والتأثير فيهم.**"

ويقول أيضا:" **لقد وُجد في عصري مَن لا يرى في القرآن سِوَى نفسِه، وكأنَّه نبيٌّ! كلُّ واحد منهم عالِمٌ في القرآن والحديث، إلاَّ أنهم قليلو الدِّراية بالشريعة .جعَلوا العقل والنَّقْل تبعًا لأهوائهم، فمِنْبرُهم منبر "أَكْل العيش وحسب** !"وفي قصيدته "دموعٌ بسبب فرقة الهنود" تصل اللَّهجة الثَّائرة لدى إقبال أقصى مَداها، وفيها يقول:

"**إنَّ الأمة التي لا تَأْكل السُّم من أجل المَجْد سوف يُمحَى مكانُها من خريطة الوجود.**"

وهو يحدِّد وضع الهند المُتردِّي بسبب الاستِعْمار البريطاني قائلاً:

"**اختلَفَ الهنودُ مع بعضهم، وأثاروا الفِتَن القديمة، حتَّى جاء الإفرنجُ من الغرب؛ لكي يكونوا وسيطًا بين الكُفْر والدِّين، فما عاد المَرْء يُفرِّق بين الماء والسراب، فالثَّورة، الثَّورة، الثورة!**".

أما قصيدة "السِّياسة الحاضرة"، فتصف أسلوبَ الاستعمار الماكر، والذي يخدع أبناءَ الوطن بقشرة من الحريَّة، بينما هو يُحْكِم القيد على رقابهم، يقول إقبال: "**يُحْكِم الاستعمارُ القيدَ على العبيد، ويَعدُّ ذلك حريَّةً لهم، وعندما رأى شعاراتِ الجمهوريَّة برَّاقة، أسدَلَ السِّتار على الملَكِيَّة، وقال: إنَّ السُّلطة جامعةٌ للأقوام، فبدا نَقْصُها !لا يَسْتطيع أحدٌ أن يطير في فضائها، كما لا يستطيع أحدٌ فتْحَ بابها بمفتاحها!**"([1]).

أمَّا القصيدة "خطاب إلى الأمَّة العربيَّة"، فيحمل فيها إقبال على العرَبِ، مُشيرًا إلى جهلهم بِماضيهم العريق، وبِذاتيَّتِهم الحاضرة، ثم بانخِداعهم بأسلوب حياة الغرب الَّذي استعمَرَ أرضهم، وفرَّق مجتمعَهم الواحد إلى العديد من المُجتمَعات المُتفرِّقة الغَريبةِ إِحْداها عن الأخرى .وفي البداية، يُنادي إقبال العربَ قائلاً:

(25) حامد طاهر، بعث الروح الإسلامية في أمم الشرق عند محمد إقبال، سلسلة أبحاث جامعية محكمة، مقال منشور بالإنترنت

"يا مَن مُلْكهم باق إلى الأبد، يا من أطلَقوا صيحة: "لا كسرى ولا قيصر"، مَن الذي كان أوَّل قارئٍ للقرآن في هذا العالَم المُترامي الأطراف بالأَمْس واليوم؟ ومَن الذي علَّم الدُّنيا سرَّ "إلاَّ الله"؟! ومن الَّذي أشعلَ هذا السِّراج لأوَّل مرَّة؟ ومن الذي أطعم النَّاس على مائدته العلمَ والحِكْمة، ومَن الَّذين نزلَتْ فيهم آيةُ ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ ﴾؟!(*)".

ثُم بعد أن عدد بعض مناقب الرَّسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – وأشاد بسيفِ "صلاح الدِّين الأيوبي"، ونَظْرة بايزيد، والمنجزات الحضاريَّة الرائعة التي ما زالت قائمة، ومُعبِّرة عن مدى ما وصَلَ إليه المُسلمون من حضارةٍ ورُقيّ؛ مثل: "قَصْر الحمراء" في إسبانيا، و"تاج محل" في الهند "الَّتي يَدْفع الزُّوارُ الخَراجَ لأهلها طوعًا"، يُصارح إقبالٌ العربَ قائلاً:

"لقد تقدَّمَت الأمم بِسَعيها، وأنت أيُّها العربي لا تعرف قيمة صَحْرائك، كنتم أمَّة، فصِرْتُم أُمَمًا، وأصبحتم متفرِّقين غُرَباء، حتَّى عن أنفُسِكم، كلُّ مَن تحَلَّل مِن قيد ذاتيَّته فقد مات، وكلُّ من أسلمَ زمامه للغرباء فقد مات .لقد فعلتَ بنفسك ما لَم يفعَلْه أحد، فتألَّمَت روحُ المصطفى الطَّاهرة من فعلتك، يا مَن صرت جاهلاً بسِحْر الغرب، انظر: إنَّ الفتن كامنةٌ تَحْت ثوبه، فإذا أردتَ الخلاص من خداعه، فعليك أن تطرد إبلَه عن حياضِك!.

لقد وضَعَ الشُّعوبَ في فمه، ومزَّق الوطن العربي مائة دويلة، منذ وقَعُ العرَبُ في قبضته، لم تتمتَّع سماؤهم بلحظةٍ واحدة من الأمان، فانظُر إلى عصرك يا صاحب النَّظَر؛ حتى تعيد روحَ عُمر – رضي الله عنه – إلى بدَنِك .إنَّ قوة الجماعة من الدِّين المبين، والدِّين عزمٌ وإخلاص ويقين!".

إنَّ الشاعر المُلْهَم هو الذي يتمكَّن من وضع يدِه بدِقَّة على مَواطن الدَّاء في أُمَّتِه، كما يُمْكِنه _أيضًا_ أن يُشخِّص المرض، ورُبَّما نبَّه إلى علاجه والشِّفاء منه، ويَكْفي أن نتأمَّل قول (محمد إقبال) في هذه القصيدة الرائعة عن العرَبِ وأحوالهم: "منذ وقَعَ العرَبُ في قبضَتِه – الاستعمار – لَم تتمتَّع سماؤهم بلحظةٍ واحدة من الأمان"؛ لكي نُدرِك حقيقةً واقعة، ومع ذلك فإنَّها قد تغيب عن معظم العُقول التي ترصد وتُحلِّل، والكثير منها يتفلسَفُ ويتفَذْلك!

(*) والإشارة هنا إلى الآية الكريمة: ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ آل عمران: (103).

كذلك فإنَّ الشاعر يُؤكِّد أن الحلَّ موجودٌ ومُتاح:

"**إنَّ قوَّة الجماعةِ من الدِّين المبين، والدِّين عزمٌ وإخلاص ويقين** !"وفي قصيدة إقبال التي اختارَ عُنوانَها؛ ليكون هو عنوان هذا الدِّيوان الهام: "إذًا ماذا يجب أن نَفْعل يا أمم الشرق؟"، يضَعُ خلاصةَ تجربته وثقافته السياسيَّة، التي أدركَ مِن خلالها حقيقة الغرب، أو موقفه المُعادِيَ من أمم الشَّرق؛ باعتبارها مجالاً واسعًا لاستعماره واستغلاله، مُحاولاً بكلِّ الطُّرق تحطيم ذاتيته، وتفريقَ شعوبه، وجَعْله دائمًا في مكان التَّابع الذليل له؛ لذلك فهو يستهلُّ القصيدة بقوله: "**لقَدْ أنَّت الإنسانيَّة من جَوْر الغرب، وذبلت الحياةُ بسببه!**". وهو يؤكِّد أنَّ: "**أوروبا هوَتْ بحدِّ سيفها، منذُ رسمَتْ طريق الإلحاد تحت القُبَّة الزرقاء.**"

وهكذا يضَعُ (محمد إقبال) الصِّراع بين الغرب والشَّرق على بساط الدِّين واللاَّدين، وليس فقط على بِساط الاستعمار والاستغلال، فيَقول:**إنَّ عقل الغرب وفِكْرَه لا يُفرِّق بين الخير والشَّر، وعَيْناه جامدتان، وقلبه صخرٌ أصم. العلم في الحواضر والبَوادي في خجَلٍ منهم، عِلْم الغرب سيفٌ بتَّار قد صُنِع لإهلاك النَّوع الإنساني، فآهٍ من الغرب! وآهٍ من قوانينه! وآه من فِكْره الإلحادي!"** ويُنبِّه "محمد إقبال" المسلمَ إلى عدم الانخِداع بمُنتجات الغَرْب، فيقول:

"**يا غافلاً عن شؤون هذا العَصْر، تأمَّلْ مهارة الأيدي الأوروبيَّة؛ نسَجوا السجَّاد من حريرك، ثم أعادوه إليك مرَّة أخرى، فانخدَعَت عينُك بِظَاهره وبأصباغه الزَّائفة!**"

وهو يتأسَّى على حال المسلم، الَّذي نزع (العُلماءُ الجامدون) من قَلْبِه "جذبة الدِّين" أو بالأَحْرى شعلتَه الَّتي كانت تضيء العالمَ مِن حوله، حتَّى صار مثل العبد الَّذي يرسف في أغلاله، ويستَجْدي مِن الغرب خبز الشَّعير؛ يقول إقبال: "**تجوَّلتُ بين العجم والعرَب، فرأيتُ قلَّةَ أتباعِ المصطفى، وكثرةَ أتباع أبي لهَب!هذا المسلم مضيءُ القلب، الَّذي يُضيء ضميره بدون سراج، كالحرير نعومةً ولُطفًا في شبابه، تَموت الرَّغبة في صدرِه! وهذا العَبْد أبو العبد ابن العبد، فِكرُه في الحريَّة حرام! أخذَ أهل العلم جذبة الدِّين منه، ولا يَعْلم من وجوده سوى أنَّه كائنٌ حي، فنَسِي نفسه، وتعلَّق بالغرب، يَطْلب منه خبز الشعير!**".

إذًا لن يَنْهض العالم الإسلاميُّ المعاصر إلاَّ إذا تخلَّص من تبعيته للغرب، هذا الغرب الذي يُشبِّهه (محمد إقبال) بالذِّئب الذي يوصي الحمَل بأن يَبْني حظيرتَه في فِنائه! والواضح تمامًا لدى الشَّاعر أنَّ التَّعارُض – بل التضادّ – قائمٌ – وسيَظلُّ – بين الغَرْب والعالم الإسلامي؛ لأنَّ مُنطلَقات كلٍّ منهما مُختلِفةٌ تَمامًا. فالغَرْب لا يعترف إلاَّ بِحَضارة الجسَد، بينما العالم الإسلاميُّ كلُّه يقوم تصوُّره على أنَّ الإنسان – أكرَمَ المخلوقات – مكوَّنٌ من جسَد وروح، وهذا يعني أنَّنا أمام طرَفَيْن: أحدهما تقوم حضارتُه على الإيمان بالله الواحد، والطَّرَف الآخَر ميَّال بطبعه وحضارته إلى الإلحاد.

وأخيرًا، فإنَّ تميُّز الشاعر (محمد إقبال) يَظهر – بالإضافة إلى فِكْره الثاقب، وتحليلاته الدقيقة، وملاحظاته الواعية – في صُوَرِه الشعريَّة التي تُضْفي على أبياته جمالاً وروعة، وتبثُّ فيها روحًا وحيويَّة، وتجعلها تنتقل بين العقول والقلوب، وتمتزج بالنُّفوس والأرواح، ومِن المُقرَّر أنَّ هذه الخصائص تقف وَراءها موهبةٌ شعريَّة متكامِلةُ العناصرِ والأدوات ([1]).

حب إقبال للعربية واتصاله بالعرب:خاطب (محمد إقبال) العرب خاصة، والمسلمين عامة، قائلاً لهم: "**إنكم الآن تجتازون أدقَّ مرحلة، وتقومون بأصعب دور في حياتكم السياسية؛ فعليكم أن تحتفظوا بالارتباط الشامل، والاتحاد القويم، في العزائم والجهود، وفي الوسائل والغايات، إنني لا أستطيع أن أخفيَ عنكم شعوري بأنكم –في سبيل تدارك هذه الحال الخطرة– لابد أن تناضلوا كِفاحَ الحرية. ولا سبيل إلى محاولة أخيرة لكسبٍ سياسي؛ إلا حيث تكون العزائم عزماً واحداً، والقلوب المتباعدة قلباً واحداً، وأن تتركز مشاعركم في مَطلب لا تختلفون عليه. إنكم تستطيعون ذلك، وبقوَّة –إن شاء الله– يوم تتحرَّرون من القيود النفسية، وحين تضعون أعمالكم الفردية والاجتماعية في ميزان ما تَنشدونه من الأهداف العالية، والمثُل الرفيعة**".

ويقول عنه "د. عائض القرني": "**هو يحب العرب كثيراً، ويقول: يا ليتني أُجيد اللغة العربية مئة في المئة. ومع ذلك لا زلنا والحمد لله نتمتَّع بمقطوعاته الجميلة الإيمانية**". ويقول في قصيدته واصفاً حاله:

أنا أعجميُّ الدَّنِّ، لكِنْ خَمرَتي صُنْعُ الحجازِ وكَرمِها الفَينانِ

(26) حامد طاهر، مرجع سابق.

إن كان لي نَغَمُ الهنودِ ولحنُهم لكنَّ ذاك الصوتَ من عدنانِ (1).

وأما اتصال (محمد إقبال) بالعرب فلعل أولَ زيارة لإقبال للعالم العربي كانت عام 1905م، إذ توقَّفت الباخرة التي كانت تُقِلُّه إلى إنكلترا في عدن وبورسعيد، "لم يخرج إقبال من الباخرة في عدن؛ بسبب شدَّة حرارة الجو، ولكنه خرج متنزِّهاً في بورسعيد فزار بعض المدارس والمساجد"(2).

ولدى توقفه هناك؛ كتب رسالة في قناة السويس إلى حاكم مصر، وكان يومها الملكَ فؤاد (1917-1936م) يقول: "**بسم الله الرحمن الرحيم، من إقبال إلى فاروق مصر: يا فاروق مصر! إنك لن تكونَ كالفاروق عمر، حتى تحمل دِرَّةَ عمر! والسلام!!** ". وربما أطلق على الملك فؤاد لقبَ (الفاروق) تيمُّناً بالفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه (3).

وقد تأخَّر تعرُّف إقبال كثيراً في البلاد العربية، فمع أنَّ رحيله كان عام 1938م؛ فإن التعريفَ به الذي يستحقُّه جاء بعد أكثر من عِقد من الزمن، بيد أن التعريف به – في حياته – كان مقتصراً على النخبة المثقفة فقط، التي كانت تهتم باللغة الفارسية والأُردية. ويبدو أن أول تكريم لإقبال في بلاد العرب كان في مصرَ، وهو في طريقه إلى فلسطين، لحضور المؤتمر الإسلامي الأول، عام 1931م؛ إذ رسا مركبُ إقبال في قناة السويس، شأنه شأنُ أي مسافر على متن باخرة في الطريق نفسه، ثم عرَّج على الإسكندرية، حيث أقامت له "جمعية الشبان المسلمين" احتفالاً هناك، يقول (عبد الوهاب عزام):

"**وكان من سعادة الجَدِّ، وغِبطة العين والقلب؛ أن قَدِم (محمد إقبالُ) مصرَ في طريقه إلى المؤتمر الإسلامي، الذي اجتمع في المسجد الأقصى، سنة 1931م؛ ودعت "جمعية الشبان المسلمين" إلى الاحتفال بالرجل العظيم. واقترح أستاذنا الشيخ (عبد الوهَّاب النجار) – رحمه الله – أن أُقدِّم (محمد إقبال) إلى الحضور**"(4).

---

(27) عايض القرني، مملكة البيان، دار ابن حزم، الرياض، ط1، 1422هـ.، ص 18.

(28) خليل محمود الصمادي، الشاعر محمد إقبال وصلته بالعرب، مقال منشور على الإنترنت.

(29) مملكة البيان، مرجع سابق، 22.

(30) عبد الوهاب عزام، موقع رابطة أدباء الشام على الإنترنت.

المبحث السابع

مسائل أخرى متفرقة في شعر محمد إقبال

أولًا: علاقة محمد إقبال بالمشاهير والحكام:

كانت قضيَّت "محمد إقبال" الكبرى أنْ يُؤْمِنَ الناسُ ويهتدوا إلى الحق، فأرسل رسالة إلى "لينين"، زعيم الاشتراكيين وقائد ثورة 1917م في روسيا التي ألغت الملكية القيصرية ورسخت قواعد الاشتراكية العالمية، وكان (محمد إقبال) مشهورًا على مستوى العالم يعرفه لينينُ، ويعرفه أذناب الشرق والغرب، يقول: "**اتَّق الله يا لينين، فإنك قصمت ظهر الرأسماليَّة فأحسنت، فألحق بقصمك للرأسماليَّة لا إله إلا الله**"([1]) ودخل على "نادر شاه" في كابل، ونادر شاه كان ملك أفغانستان آنذاك، وكتب رسالة إلى "محمد إقبال" يقول: "اقدَم إلينا، اقدَم إلينا". فدخل محمد إقبال فخرج الأفغان ألوفًا مؤلَّفة في الشوارع يستقبلونه، فأخذ – قبل أن يقابل الرئيس أو الملك– نسخة من المصحف وأعطاه، وقال: " **يا نادر شاه، والله لن تعلُوَ بشعب الأفغان حتى تأخذ هذه الوثيقة، إنني أتيت بها من الله**"([2]). يعني: أن هذا القرآن من الله.

ثانيـــاً: استشهاد فاطمة بنت عبدالله: استشهاد امرأة على ثرى أرض عربية نتيجة تصدي شعب هذه الأرض للهجمة الاستعمارية، قد يكون حدثـــاً عاديـــاً يتكرر في أماكن كثيرة دون أن يترك أثرًا أو ذكرًا، إلا أن حدثـــاً مثل هذا لم يمر مرور الكرام عند شاعر العروبة والإسلام (محمد إقبال)، فانبرى يرثي الشهيدة "فاطمة بنت عبدالله" التي استشهدت وهي تطوف بالماء على المجاهدين والجرحى في الحرب الإيطالية – الطرابلسية، التي نشبت بين عرب ليبيا والمستعمر الإيطالي، بعصارة فنه ولحنه ليثبت الشاعر أنه لم يكن فكره يومـــاً متحيزًا لبيئته ولا قارته، بل تجاوز ذلك إلى كل بقعة في أرض العرب والمسلمين، وحسبنا هذا بينة على أن إقبالًا كان يقف من المسلمين على اختلافهم في

(31) عبد العظيم رمضان، تاريخ أروبا والعالم، جزء (2) الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1997م، ص 269
عبد اللطيف الجوهري، مع إقبال شاعر الوحدة، دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، القاهرة، 1986م، ص132) 32(

الجنس والوطن واللسان، موقفه من مسلم واحد تجمعه بأخيه في الدين وحدة الإيمان، والذي طالما عبر عن هذا المبدأ الذي ثبت عليه في كثير من أشعاره، ولم يحد عنه لأي سبب من الأسباب (1).

يقول إقبال:

"أنتِ للأمةِ عُنوانُ الشرَفْ / وبِهذا فثَراكِ قَدْ هَتفْ / نِلتِ هَذا أنتِ حَورَاءُ الصَّحاريْ / فَجَعلتِ السَّقيَ لَكنْ بِالفَخَارِ / ذَا جِهادٌ دُونَ دِرعٍ أوْ حُسَامْ / لِشَهيدٍ إنَّ هَذا لَلْمَرامْ / بُرعُمٌ أنتِ ولَكنْ في الخَريفْ / في رَمادٍ شُعلةٌ ذَاتُ وَرِيفْ♣/ إنَّ في الصحراءِ أسْرابَ الظِّباءْ / كَمْ بُرُوقٍ بِغَمامٍ في خَفَاءْ/ وعَليكِ الدَّمعَ حتى لو سَكَبنا/ وأَقمنَا مَأتماً فيهِ طَربْنَا/ في ثَراكِ قَدْ رَقدتِ يا شَهِيدةْ/ وبَذراتِ الثَّرى رُوحٌ جَدِيدةْ/ ما بِهذَا القَبرِ مِنْ صَمْتٍ رَهِيبْ/ إنمَا جِيلٌ عَليهِ لَلرقيبْ/ لَستُ أَدري الجِيلُ مَاذا يَقْصِدُ/ هُوَ يَأبَى أَنْ يُضَمَّ المرْقَدُ/ هوَ ذَا بَدرٌ جَديدٌ في السمَاءْ/ لَمْ تَرَ العَينُ مَثِيلا في الضِّيَاءْ/ هُوَ ذَا نَجمٌ جَديدٌ يُرتَقَبْ/ في صَباحٍ ومَساءٍ ما احْتَجَبْ/ وجَدِيدًا وقَدِيماً قَدْ جَمَعْ/ كَسنَاكِ لِعُيونٍ قَدْ لَمعْ"(2).

ثالثـــاً: حصار أدرنة:

كونت دول البلقان (بلغاريا، وصربيا، والجبل الأسود) حلفـــاً في ما بينها عام 1910م، وقامت بمهاجمة تركيا التي كان قد حدث فيها انقلابـــاً ضد السلطان عبدالحميد الثاني بقيادة رجال تركيا الفتاة الذين تمكنوا من عزل السلطان وإعلان العمل بالدستور، وقد فوجئ الجيش التركي بخوض هذه الدول الحرب ضده رغم تحفظ الدول الكبرى _آنذاك_ روسيا وبريطانيا على هذه الحرب، وتحذير بلغاريا من المساس بأراضي الدولة التركية، إلا أن القوات البلغارية قامت بالهجوم على الأتراك، وتمكنوا من تحقيق انتصارًا

(33) بدائع العلامة إقبال، مرجع سابق، ص 35.

(♣) الوريف، جمال خضرة الزرع.

(34) بدائع العلامة إقبال، مرجع سابق، ص 177.

كبيرًا على الجيش التركي فقدت معه تركيا معظم أراضيها في أروبا، واستمر الجيش البلغاري في التقدم نحو القسطنطينية، وحاصرت قواته مدينة "أدرنة"([1]).

وقد سعت الدولة العثمانية إلى تخفيف الضغط على مدينة أدرنة المحاصرة فشنت هجومها مضادًا على القوات البلغارية، وتمكنت من وقف هجوم الحلفاء على القسطنطينية، وهنا تدخلت بريطانيا، ودعت إلى وقف الحرب، وعقدت معاهدة بين الأتراك ودول البلقان في 30 مايو عام 1913. تم بموجبها التنازل عن جميع الأراضي العثمانية التي تقع غرب خط أينوس– ميدا للاتحاد البلقاني، أعلنت المعاهدة أيضا قيام دولة ألبانيا المستقلة، وكانت غالب الأراضي التي كانت مخصصة لتشكل الدولة الألبانية الجديدة يشغلها _آنذاك_ إما اليونان أو صربيا، إلا أن الدولتان قامت بسحب قواتهما على مضض([2]).

يقول إقبال متأثرا بهذه الأحداث:

"بَينَ حَقٍّ أَجَّجتْ حَربٌ وَبَاطلْ/ لَجَأَ الحَقُّ إلى سَيفٍ يُقَاتِلْ/ وَصَلِيباً جَمَعُوهُ بِالهلالْ/ ثُم شُكرِي حَاصَرُوهُ في التَّلالْ/ وَعَتَادُ المسلمِينَ قَدْ نَضَبْ/ غَابَ نَصرٌ عَنْ عُيُونٍ وَاحْتَجبْ/ قَائدُ الأتراكِ أَمراً أَصدَرا/ وَرِجالَ الحَربِ حتى أَمَّرا/ كُلُّ شَيءٍ كَانَ لَكنْ لِلعَرمْ/ حَبَةَ العُصفُورِ صَقرٌ قَدْ عَدِمْ/ لِلفقيهِ قد نَمَا هذا الخبَرْ/ مِثلَ نَارِ الطورِ أَضحَى في شَرَرْ/ مَالُ ذِميٍّ عَلينا قد حَرُمْ/ هَذِهِ الفَتوَى بِهَا كُلٌّ عَلِمْ/ لَمْ يَمسَ الجيشُ مَالا لِأَحَدْ/ غَيرَ تَسلِيمٍ بِحُكمٍ ما وَجَدْ".

كما تثبت هذه القصيدة _أيضـــاً_ اهتمام (محمد إقبال) بما يحدث من متغيرات سياسية نتيجة الصراع المرير الذي يخوضه العرب والمسلمون ضد أطماع الغرب المستعمر، وهجمته الشرسة على الشرق مستغلًا ضعف الدولة العثمانية، وتحفزه للانقضاض على جميع ممتلكاتها في الشرق والغرب، مما

(35) هارولد تمبرلي، أ.ج. جرانيت: أروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمة، محمد علي أبو درة، ولويس اسكندر، مراجعة، أحمد عزت عبدالكريم، القاهرة، مؤسسو سجل العرب، 1965م، ص 150–152.

(36) Turkish General Staff, Balkan Harbi (1912–1913) 1 Cilt, Harbin Sebepleri, Askeri Hazirliklar ve Osmanli Devletinin Harbi Girisi (Inkinci Baski), (Ankara: Generalkurmay Basimevi, 1993) p.100, as found in Erickson, 2003, p.52.

يعيد للأذهان تاريخ الحروب الصليبية والصراع الدامي بين الإسلام والمسيحية، وهو التوجس الذي انعكس على معنى القصيدة ومغزاها([1]).

رابعـــــاً: أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

كان الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم المثل والقدوة في البذل والعطاء ومواساة الفقراء والمحتاجين واقتدى به أصحابه رضوان الله عليهم، وأخذوا يتنافسون في الإنفاق، ويسارعون إلى بذل أموالهم لله ولرسوله وللمؤمنين خاصة الأغنياء منهم . فقد روى (أسامة بن زيد بن أسلم)، عن أبيه قال: "**كان أبو بكر معروفًا بالتجارة، ولقد بُعث النبيُّ صَلَّى الله عليه وسلم وعنده أربعون ألفًا فكان يعتق منها، ويَعُول المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف، وكان يفعل فيها كذلك**". وروى (أَبو هريرة) رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: "**مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ، مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ**". **فبكى أَبو بكر وقال: وهل أَنا ومالي إِلا لَكَ يا رسول الله؟ .**"

وأخرج أبو داود عن عمر بن الخطاب قال: " **أَمرنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم أَن نتصدق، ووافق ذلك مالًا عندي، فقلت، اليوم أَسْبق أَبا بكر إِن سَبَقْته، فجئت بنصف مالي، فقال النَّبي صَلَّى الله عليه وسلم" :"ما أَبقيت لأَهلك؟" قلت: مِثْله، وجاءَ أَبو بكر بكلِّ ما عنده، فقال النَّبي صَلَّى الله عليه وسلم: "يا أَبا بكر، ما أَبقيت لأَهلك؟" قال: أَبقيت لهم الله ورسوله، قال عمر: لا أَسبقه إِلى شيء أَبدًا** "([2]).

إن حب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتسابقهم في البذل والعطاء بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وخاصة صاحب رسول الله ورفيق دربه وهجرته وخليفته من بعده "أبوبكر الصديق" رضي الله عنه، أثر في الشاعر (محمد إقبال) وانعكست هذه المواقف في وجدانه إكبارًا وإجلالًا، أخذ يعبر عنها بقوله:

---

(37) بدائع العلامة إقبال، مرجع سابق، ص 178.

(38) جميلة هادي الرجوي، بحث مقدم في ندوة السنة النبوية، بعنوان: (الأعمال، إدارتها وتمنيتها في السنة النبوية).

"كَانَ فِي أَموالَكمْ هَذا المزِيدْ/ فَبِمالٍ في سَبيلِ اللهِ جُودُوا/ سَمعَ القَولَ وَفِي التوِّ عَمَرْ/ وَبِمالٍ جَيبُهُ كَانَ عَمَرْ/ وَبِهذا قالَ إني أَليَقُ/ وَمِنَ الصدِّيق إني أَسبَقُ/ قَدمَ المالَ جزيلا للرسُولْ/ إنمَا الإيثارُ مَحمُودُ القَبولْ/ فَرسُولُ اللهِ قالَ يا عُمَرْ/ لكَ قلبٌ هوَ بالإيمانِ قَرْ/ هل تَركتَ أنتَ شَيئا للعيالْ/ إنَّ ذا القُربى لهُ حقٌّ يُنالْ/ نِصفُ هذا المالِ لكن حَقهمْ/ نِصفهُ الثاني يَنالُ غَيرُهُمْ/ جاءَ في التوِّ رَفيقٌ للنَبوةْ/ ومثالٌ للصفاءِ والأخوةْ/ إنما جاءَ بكُلِّ ما لديهِ/ كَلُّ شيءٍ عندهُ هَانَ عَليهِ/ ما تَبقى في يَديهِ من دَراهِمْ/ بِمتاعٍ جادَ بَلْ حَتى السَّوائمْ/ إنَّ ذا القُربى حَقيقٌ بِالرعايةْ/ بَدَأ الصديقُ قَولا في النهَايةْ/ كُلُّ جرمٍ في السماْ مِنكَ استَتَبْ/ ولِخلق الكونِ ذَياكَ السبَبْ/ لِلفرَاشِ الشمعُ طَيرٌ لِلشَّجرْ/ لِرسولِ اللهِ صِديقٌ ظَهرْ"([1]).

خامســاً: غزوة اليرموك:

تعتبر معركة اليرموك واحدةً من أبرز المعارك التي خاضها المسلمون بعد وفاة الرّسول محمّد – صلّى الله عليه وسلّم – وهي معركة خالدة أرّخها المسلمون لحظةً بلحظة، فهي التي أسّست لعصر جديد من العزّة، والمنعة، والتوسّع، وتعتبر معركة اليرموك واحدةً من أبرز الانتصارات التي حقّقها المسلمون بعد وفاة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وقد وقعت المعركة قرب نهر اليرموك، الذي ينبع من جبال حَوْران، والذي يجري بدوره قرب الحدود الفاصلة بين فلسطين وسوريا، وكان عدد جيش المسلمين يصل إلى ثلاثين ألف مقاتل أو يقلون قليلاً، وفي المقابل بلغ عدد جيش الرّوم ما يقارب المئتين وأربعين ألفاً. وكان الخليفة أبو بكر الصديق قد أمر خالد بن الوليد ليقود الجيش، لما عرف عنه من شجاعة وحنكة عسكرية، وعبقرية في إدارة المعارك منذ أن كان في الجاهلية، وقبل أن يسلم ويلقبه الرسول صلى الله عليه وسلم بسيف الله المسلول. وبالفعل حقق الجيش الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد انتصارًا كبيرًا في على قوات الروم، فقتل وأسر منهم الكثير، وفرَّ باقي الجيش منهزمــاً، وهنا توفى الخليفة أبو بكر، وخلفه الخليفة عمر بن الخطاب الذي قام بعزل خالد من قيادة الجيش وولى بدلا عنه "أبو عبيدة بن الجراح"، ولم يعزله عمر بن الخطاب بغضاً به، ولكنّه ضحّى بذلك في سبيل توحيد المسلمين، حيث رأى أنّ الجند قد تعلقوا

(39) بدائع العلامة إقبال، مرجع سابق، ص 182، 183.

بخالد، واعتمدوا على عبقريّته، فعزله ليفهموا أنّ النّصر من عند الله، وأنّ هذا النّصر يأتي بخالد وبدونه، وحتّى يتكلوا على الله عزّ وجلّ، لا على بشر مهما كان قويّاً وذكيّا(ً[1]).

يقول (محمد إقبال) شعرًا مسجلًا هذا الانتصار:

"عَربٌ جَالوا وصَالوا بالحسَامْ/ تَبتغي حِناءَها خَوْدَ* الشَّآمْ/ جاءَ شابٌ في حَماسٍ مُضطرِمْ/ يَسألُ القَائدَ إنْ كَانَ عَلَمْ/ قالَ تَوا فَلْتَمُرني بِالقتالْ/ عِيلَ صَبرِي إنَّ صَمتي اليومَ طَالْ/ إنَّ حُزني من فراق للرسولْ/ بِفراقٍ عَنْ حَبيبٍ مَنْ يَقُولْ/ إنني أَمضي إليهِ لا مَحَالةْ/ وإليهِ حَاملٌ أيَّ رِسالةْ/ فإذا بالعينِ منهُ تَدمعُ/ عينُهُ كَانتْ كسيفٍ يَلمعُ/ أنتَ صِنديدٌ وَلستَ بالنزِقْ/ أنْتَ يا هذَا لنِعمَ مَنْ عَشِقْ/ وبفضلِ اللهِ تَحقيقُ الهَدَفْ/ أنتَ مِنْ حُبِّ النبيِّ ذُوْ الشَّرفْ/ إنْ شَرُفتَ ذاتَ يوم بِالمُثولْ/ فَلتُبلِغْ يا بُنيَّ ما أقُولْ/ إنمَا اللهُ بنصرٍ قَدْ وَعَدْ/ وبِهذا النصرِ كُلٌّ قَدْ سَعِدْ"([2]).

سادســـًا: في أرض فلسطين:

تحركت السيارات التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام (1931م)، ودخلت في الفضاء الواسع، وطلعت الشمس وأرسلت خيوطها الذهبية، كأنها جدول نور نبعت من عين شمس، ولا يزال الشروق مصدر سرور وإلهام للشعراء، والتقى جمال المكان بجمال الزمان، فأثر ذلك في الشاعر والفيلسوف الكبير "محمد إقبال"، الذي جاء من أوربا يمثل الهند الإسلامية في المؤتمر الإسلامي.

وقد تهيأ الجو وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر وإثارة قريحته، فقد غطت الجو سحائب ذات الألوان واكتست جبال فلسطين بطيلسان جميل زاهي اللون، وهب النسيم عليلا بليلا، وأصبحت الرمال في صفائها ونعومتها حريرًا، وطاب المكان والزمان للشاعر وسمع كأن مناديا من السماء يحثه على أن يلقي عصا التسيار ويؤثره بإقامته.

---

(40) مقال عبقرية خالد العسكرية/ الشيخ علي طنطاوي/2003/01/14/ موقع المقالات/ إسلام ويبislamweb.net /، أيضا: ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والرسل والملوك، الجزء الثاني، ص 396.

(41) ديوان بال جبريل، بدائع العلامة إقبال ص 196، 197.

حرك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع الذي أكرمه الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية الحب الدفين للإسلام للأمة الإسلامية، وسيطر حبه على مشاعره وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

"**وَلما نَزلنا مَنزِلا طَلَّهُ النَدى / أَنيقاً وبُستاناً مِن النورِ حَالِيا / أجدَّ لنا طِيبُ المكانِ وحُسنهِ /منىً، فتمنينا، فكنتِ الأمَانيا**".

وثارت فيه العواطف والخواطر ورأى أن ركب الحياة بطئ لا يسايره في أفكاره الجديدة، وخواطره الوليدة، ورأى أن العالم عتيق شائب وفكره الإسلامي جديد فتي، ورأى أن العالم قد تجددت فيه أصنامـــاً وأوثانًا، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم القومية والوطنية واللون والجنس والنفس والشهوات، وقد تسربت هذه الوثنية إلى العالم الإسلامي والعربي، وأصبح في حاجة إلى ثورة إبراهيمية جديدة، إلى كاسر أصنام يدخل في هذا الهيكل فيجعل هذه الأصنام جثاثا.

وسرح طرفه في العالم الإسلامي فوجد إفلاســاً محزنــاً في العقل والعاطفة، ورأى العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته وفي لوعته وعاطفته، ورأى العالم العجمي قد فقد العنف والسعة في التفكير، ورأى النظام المادي والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائرًا جبارًا جديدًا، يغضب للحق ويثور. ويرى (محمد إقبال) أن السبب في هذا التحول العظيم هو ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحب، الذي هو مصدر الثورات والبطولات، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ويقول:

" **لابد أن يعيش العقل والعلم في حضانة الحب وإشرافه وتوجيه، ولابد أن تسند الدين وتغذي عاطفة قوية وحب منبعه القلب المؤمن الحنون، فإذا تجرد الدين عن العاطفة والحب أصبح مجموعة من طقوس وأوضاع وأحكام لا حياة فيها ولا روح، ولا حماسة فيها ولا قوة، هذا الحب الذي صنع المعجزات، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين، وهو الذي تجلى في معركة بدر وحنين**".

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيدًا في دراساته العلمية الواسعة، وأنه قد اتضح له أخيرا أن المعلومات لا تعطي الثمرات، وليس كل من درس علم النخيل تمتع بالرطب، ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة والمصلحة والإيمان، ذلك الصراع الذي لم يزل ولا يزال قائمــاً حاميــاً، ويذكر معركة قامت في فجر التاريخ الإسلامي بين المادة والإيمان، حمل لواء المادة أبو لهب وأمثاله ورفع راية الإيمان فيها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولكلٍ حلفاء ولكل معسكر.

فلينظر العالم العربي إلى أي معسكر ينضم إلى معسكر المادة والمعدة أم إلى معسكر الإيمان والإخلاص، وإلى أي راية ينضوي، إلى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب، أم إلى الراية المحمدية التي ألتف حولها أبو بكر وعمر(1).

الخاتمـــــــة:

الحمد لله بدءًا وانتهاءً، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فيطيب لي في نهاية البحث أن أختمه بذكر ما توصلت له من نتائج، وهي على النحو التالي:

من خلال هذا العرض لبعض نصوص (محمد إقبال) المترجمة شعرًا ونثرًا، تبين لنا القيمة التاريخية التي عكست موسوعية الشاعر والفيلسوف، واهتمامه الكبير بقضايا أمته التي ينتمي إليها وتغنيه بأمجاد العرب والمسلمين والدعوة لإحيائها، وتأكيده على أن العقل العربي كان الأقدر على فهم الإسلام فهمًا صحيحًا، والأجدر على حمل أمانته. وقد عني الشاعر عناية عظيمة بالغوص في بحر القرآن وتدبر معانيه، وهو الأمر الذي انتفع به الشاعر انتفاعـــاً عظيمـــاً عصمه من التيه الفكري والهيام الأدبي المتمحور حول الذات وحب الملذات، كما هو حال الكثيرين من أدباء وشعراء الأمة. كما حماه هذا التدبر _أيضا_ من الانجراف مع التيار العقلي الأوربي الذي كان سائدًا في عصره، والذي يأخذ المرء بعيدًا عن المعاني الروحية والمبادئ الخلقية، ولذا نراه يشتد في نقد الحضارة الغربية المادية ويرى في الإسلام وحضارته السعادة الحقيقية.

وقد علَّم إقبال الجماهير المسلمة الفرق الجلي بين الحضارة الأوربيَّة والأمريكيَّة الخاوية على عروشها من أي معنًى من معاني الإيمان والرُّوح، وبين الحضارة المسلمة التي جمعت بين الدين والدولة، وبين الناحية الرُّوحية التي يحتاج إليها الإنسان في كلِّ يوم، وبين الناحية المادِّيَّة التي تنهض بها الأرض في نطاق قضية الإعمار التي أشار إليها القرآن الكريم، ومن ثَمَّ أتى (محمد إقبال) إلى المسلمين، وأعلن أن الحضارة محتاجة إلى إيمان المؤمنين، وصلاة المصلِّين، وصدق الصادقين.

ورأينا كيف تغنَّى (محمد إقبال) في كثير من أشعاره بأمجاد العرب وندبها في ذات الوقت، وما تفجَّعه على المسلمين وقد زار قرطبة، ووقف أمام الجامع ولم يجد المسلمين، ووجد المسجد قد حُوِّل إلى حانات من الخمر، إلا مثالًا على ذلك، وكذلك تذكره للفردوس المفقود (الأندلس)، ودعاء طارق وما تركه من حنين في قلب الشاعر ورحه لتلك الأمجاد والأيام الخوالي، ودعوته للمسلم أن يصحو من غفوته، ويسرج شعلة الإسلام التي ملأت العالم نورًا وحرارة، وتعد أندلسياته سجلًا تاريخيـــاً حافلًا للأندلس، أمَّا

(42) ديوان "بال جبريل" ، روائع إقبال، مرجع سابق، ص 84-88.

شعره فإنه يتميَّز بأنه يوقظ العقول، ويهزُّ النفوس، ويُربي الآمال في الصدور، ولا عجب فقد سالت في شعره دموعه ودماؤه، وفاضت فيه مهجته ودعاؤه.

لذا فإن أدب العلاَّمة (محمد إقبال) _رحمه الله_ يُعتبر من القواعد التي تشكَّلت على أُطُرِهَا أسس الأدب الإسلامي، واحتوى في مضمونه على العلوم الطبيعية والتجارِب الإنسانيَّة الذي انتقل به من الإطار المحلى إلى العالمية، وهي الخاصية التي أثّرتْ في فكره وشعره، وانطلقت به في مدارج أكثر رقيا وأوسع انتشارا، فتسابقت الأقلام ترصد بالدراسة والبحث موروثه الكبير، وتأثيره العظيم في الأجيال جيلًا بعد جيل.

المراجـــع:

1- أبو الحسن الندوي، روائع إقبال، دار الفكر، دمشق، ط1، 1960م.

2- تشالرز آر. بيتر، فكرة حقوق الإنسان، ترجمة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2015م.

3- جميلة هادي الرجوي، بحث مقدم في ندوة السنة النبوية بدبي، بعنوان: (الأعمال، إدارتها وتمنيتها في السنة النبوية).

4- حامد طاهر، بعث الروح الإسلامية في أمم الشرق عند محمد إقبال، سلسلة أبحاث جامعية محكمة، المقال منشور بالإنترنت على الرابط التالي:
http://www.alukah.net/literature_language/0/40145/

5- حازم محفوظ، حسين مجيب المصري، بدائع العلامة إقبال في شعره الأردي، ترجمة : ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م.

6- خليل محمود الصمادي، الشاعر محمد إقبال وصلته بالعرب، موقع الألوكة الأدبية واللغوية على النت رابط: http://www.alukah.net/literature_language/0/828

7- رضا العطار، فضل الحضارة الإسلامية على النهضة الأوربية، مقال منشور على الإنترنت.

8- صقلية، موسوعة المعرفة على الإنترنت، على الرابط: www.marefa.org/index.ph

9- سيد عبد الماجد الغوري، ديوان "محمد إقبال"، الأعمال الكاملة،، ط 3، دار ابن كثير، بيروت، 2007م.

10- عبد الوهاب عزام، موقع رابطة أدباء الشام.

11- عبد العظيم رمضان، تاريخ أروبا والعالم، جزء (2) الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1997م.

12-عبد اللطيف الجوهري، مع إقبال شاعر الوحدة، دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، القاهرة، 1986م.
13- علي طنطاوي، عبقرية خالد العسكرية، مقال منشور بإسلام ويب، 2003/01/14/ islamweb.net/
14- عماد الدين إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، الجزء الثالث عشر، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2006م
15- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء (1)، كتاب الإيمان، مؤسسة المختار، القاهرة، 2004م.
16- مسجد قرطبة، موسوعة وكيبيديا على الإنترنت، https://ar.wikipedia.org/wiki
17- محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، دار النفائس، ط5، 2005م.
18- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الأول، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2001م.
19- ولي شيرين، تاريخ أروبا السياسي والثقافي، ترجمة: د. نزار نبيل أبو منشار، وكذلك، جميلة الرجوي، محاضرات في تاريخ أروبا السياسي، (الإصلاح الديني في أروبا).
20- ول وايرل ديورانت، قصة الحضارة، الجزء (14، 24)، ترجمة: زكي نجيب محفوظ، تقديم: محيي الدين صابر، دار الجيل، بيروت.
21- هارولد تمبرلي، أ.ج. جرانيت: أروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمة، محمد علي أبو درة، ولويس إسكندر، مراجعة، أحمد عزت عبدالكريم، القاهرة، مؤسسو سجل العرب، 1965م.

المراجع الأجنبية:

(1) **Vasiliev,A.A.,Histoirr de LEmpire Byzantin,paris,1932,p.82.**
(2) **Turkish General Staff, Balkan Harbi (1912-1913) 1 Cilt, Harbin Sebepleri, Askeri Hazirliklar ve Osmanli Devletinin Harbi Girisi (Inkinci Baski), (Ankara: Generalkurmay Basimevi, 1993) p.100, as found in Erickson, 2003.**

جامعة الناصر

AL-NASSER UNIVERSITY